المشرق

المخطوطات الطبية

في مكتبة كليتنا الشرقية

للاب موريس كولنجت مدرس الطبيعيات في مكتبنا الطبي

وعدنا (ص٥٤٢) والحرّ ينجز وعـده ان نصف لقراء المشرق ما تحتويه خزانة مدرستنا الكليّة من المخطوطات الطبيّة فانّ في وصفها فوائد لا تُنكر خصوصاً لطلبة الطب من الشرقيين ليقفوا بمعرفتها على شيء من تآليف الاطبّاء الاقدمين الذين سبقوهم وعلى مضامين هذه المصنفات . ونحن ندلُّ على كل واحد منها باعداد لسهولة المراجعة

العدد ١ — كتاب الفصول للرازي . هو الكتاب الذي اتسعنا في وصفهِ في مقالتنا عن الطب في عهد الخلفاء (راجع المشرق ٤ : ٥٤٣-٥٤٩)

العدد ٢ — هو مجموع ثلاثة كتب طبيّة مجلّد بجلد مراكشي بنقوش طولهُ ٣٢ س في عرض ٢٢ س صفحاتهُ ٤٧٥ لكل صفحة ١٦ سطراً مكتوب بخط مغربي. هذا الكتاب كان استنسخهُ سنة ١٨٧٩ في تونس حضرة الاب يوسف حوّاء اليسوعي عن نسخة قديمة فاهداهُ لمكتبتنا . مضمونهُ : ١ كتاب للشريف الصقلي اوّلهُ بعد البسملة «كتاب فيهِ تأليف الشريف الصقلي رحمهُ الله امين . قال الشيخ الفقيه رئيس الاطباء الصادق الحاج ابو العباس احمـد بن عبد السلام بن عثمان الحسني الشريف الصقلي ...». والصقلي المذكور اشتهر في أيام سلطان تونس ابي الفارس عبد العزيز سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م) وكان من نطس الاطباء . امّا الكتاب فمقسوم الى عدّة أبواب يبحث فيها عن امراض الجسم عضواً عضواً . ثم يليها ذكر المواد الطبيّة وخواص النبات مفصلاً

على ترتيب حروف المعجم. وعقيب ذلك ابواب مختلفة تقسم الى عدّة فصول ليس بينها علاقة ظاهرة. ولعلها مجموعة من كتب متفرقة. ومن جملة هذه الفصول كلام في البرص والبهق ومداواتهما. وفي الحيوان ومنافعه الطبيّة الى غير ذلك من الفوائد. وفي مكتبة ليدن نسخة من هذا الكتاب (راجع فهرستها ٣: ٢٦٥)

٢ وفي الصفحة ٢٥٢ يبتدئ الكتاب الثاني وهو كتاب الرحمة في الطب والحكمة للشيخ مهدي بن علي بن ابراهيم الصنبري المتوفّى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢م). فبعد البسملة يقسم المؤلف كتابهُ الى خمسة ابواب: ١ في الطبيعة. ٢ في طبائع الاغذية والادوية. ٣ في ما يصلح للبدن. ٤ في علاج الامراض الخاصّة بكل عضو. ٥ في الامراض العامّة (راجع الحاج خليفة ٣: ٣٥١) وهو من الكتب الطبيّة القديمة المعتبرة

٣ وفي آخر الكتاب (ص٣٨٢—٤٧٥) كتاب ثالث للشيخ ابي عبد الله محمّد ابن يوسف السنوسي الحسني يتضمّن شيئًا من الطب النبوي ووصايا صحيّة نثرًا ونظمًا ووصفات طبيّة لامراض شتى. والشيخ المذكور ولد سنة ٨٣٢ في تلمسان وتوفي سنة ٨٩٦ (١٤٢٨—١٤٩٠م)

العدد ٣ مجموع آخر يتضمّن خمسة كتب طبيّة وهو مجلد مجلد اسود طولهُ ١٦ س في عرض ١٠. صفحاتهُ ٢٣٦ وفي الصفحة ١٢ سطرًا. مخطوط بخط كنائسي لاحد النصارى كُتب منذ نحو ١٥٠ سنة. بيع في بيروت

١ الكتاب الاول (ص ١—١٠) يتضمّن مقالة في تأثيرات القمر لكل يوم من أيام الشهر وهو من علم النجامة الباطل

٢ الثاني (ص١١—١٧٦) هو كتاب الرحمة السابق وصفهُ في العدد ٢

٣ الثالث (١٧٦—٢٠٣) كتاب برء الساعة لابي بكر محمد الرازي صاحب كتاب الفصول وضعهُ للوزير ابي القاسم بن عبد الله ليبيّن فيه العلل التي يمكن برؤها في ساعة من الزمان. وهو كتاب فريد في بابهِ

٤ الرابع (ص٢٠٣—٢١٦) يتضمن جدولًا على حروف المعجم للحبوب والعقاقير والاعشاب مع بيان حقيقتها وهو كتاب حديث لم يذكر مؤلفهُ

٥ الخامس (٢١٧—٢٣٦) مختصر طبي «لجبور الجلده الذي كان باش الاطباء» ذهب بعضهُ في آخره. امَّا جبُّور المذكور فلا نعلم من امره شيئًا

العدد ٤ — كتاب غنيسة الطبيب حيث لا يوجد طبيب. طولهُ ٢٠س ونصف وعرضهُ ١٤س ونصف. صفحاتهُ ٧٤ وفي الصفحة ٢٣ سطرًا بخط عادي تاريخهُ نحو ٢٠٠ سنة. هذا الكتاب هو نفس كتاب الرحمة في الطب والحكمة مع تصرُّف قليل. بيع في حلب

العدد ٥ — كتاب تذكرة الكحَّالين. طولهُ ٢٦ س في عرض ١٦. صفحاتهُ ٢١٤ مجلَّد بجلد احمر مَرن. بيع في الموصل. مكتوب بخطّ نسخي حديث بيد مصطفى بن عبد اللطيف التكريتيّ سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦م). هذا الكتاب من انفس ما وضعهُ القدماء. وهو يقسم الى ثلاث مقالات في حدّ العين وتشريحها ثمَّ في امراض العين الظاهرة واسبابها وعلاماتها وادويتها ثمَّ في امراض العين الخفيَّة واسبابها وعلاجها. ولكل مقالة فصول عديدة جزيلة الفائدة. امَّا مؤلف هذا الكتاب فهو عيسى ابن علي الطبيب النصراني من اجلّ تلاميذ حنين بن اسحق خدم الخليفة المعتمد على الله. اشتهر في القرن العاشر للميلاد وكان يشتغل ايضًا بالحكمة. ومن هذا الكتاب نسخ قديمة في خزانة كتب باريس وفي المكتبة الخديويَّة وقد طُبعت ترجمتهُ باللاتينيَّة في البندقيَّة سنة ١٤٩٩ نقلها غويدو دي كولياكو. ولهُ ترجمة اخرى حديثة طبعت سنة ١٨٤٨ في المانية

العدد ٦ — كتاب منافع اعضاء الحيوان. طولهُ ٢٣س ونصف وعرضهُ ١٧ س صفحاتهُ ١٣٢ وفي الصفحة ٢١ سطرًا وُجد في حلب. مؤلف هذا الكتاب هو عيسى بن عليّ السابق ذكره. يصف فيهِ كلَّ الحيوانات بادئًا بالانسان مع ما في اعضاء كل منها من المنافع الطبيَّة. ينتهي في الصفحة ٨٨ وقد علَّق عليهِ القس جرجس بن توما فتَّال الحلبي حاشية سنة ١٧٨٥ جمع فيها من كتب الاطبَّاء وصفات مختلفة مجرَّبة يختمها في الصفحة ١٣٢ بوصفة للمريض الذي لا ينام «بان يُدقّ الافيون ويخلط بشراب ويلطخ فوق حواجبهِ فانَّهُ يرقد وينام»

العدد ٧ — كتاب مسائل في الطب للمتعلمين. طولهُ ٢١ س في عرض ١٥ س ونصف. مجلَّد بمقوَّى (كرتون) صفحاتهُ ١٢٥. كُتب سنة ١١١٢ (١٧٠٠م) بخطّ نسخي حسن. وُجد في حلب. وهذه المسائل من تأليف حنين بن اسحاق النصراني المتطبب الشهير المتوفى سنة ٨٧٤ م. وهي على طريقة السؤال والجواب

يبحث فيها صاحبها عن اهم المطالب الطبيَّة . والسؤال في نسختنا مكتوب بالحرف الاحمر . ولهذا التأليف نسخ عديدة في المكاتب الاوربيَّة . وعلمنا ان منشئ مجلَّة الطبيب حضرة الدكتور اسكندر افندي بارودي سينشرهُ قريباً . وقد راجع نسخةً عنده على هذه النسخة لضبط الرواية

العدد ٨ مقالات لابقراط . طولهُ ١٦ س ونصف في عرض ١٢ س ونصف . صفحاتهُ ١٧٢ كُتب بقلم عادي مُشرق لكنهُ سقط منهُ بعض الصفحات تاريخهُ بالتقريب من القرن الخامس عشر . وُجد في ماردين يحتوي هذا الكتاب على كتابَين لابقراط من ترجمة حنين بن اسحق وهما كتاب المعرفة (Pronostics) في ثلاث مقالات وكتاب الفصول (Aphorismes) في سبع مقالات . وكلاهما من الكتب الشهيرة التي طُبعت مراراً . ومنهما نُسخ خطيَّة عديدة في خزائن الكتب الأوربيَّة

العدد ٩ كتاب المغني في الطب . طولهُ ١٥ س وعرضهُ ١١ س . صفحاتهُ ٤٤٨ . مكتوب بالحرف الكرشوني . وُجد في ماردين . وفي صدره فهرس الابواب وهي نحو ٢٢٠ باباً يبحث صاحبهُ في كل باب عن مرض خصوصي مع بيان اسبابه واعراضه ومداواته . امَّا المؤلف فقد اشتهر في القرن الحادي عشر وهو ابو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين النصراني خدم الخليفتين المقتدي بالله والمستظهر بالله . ولهُ كتب كثيرة . ومن المغني نسختان في مكتبة باريس العموميَّة

العدد ١٠ كتاب الحاوي في الطب . طولهُ ٢١ س ونصف وعرضهُ ١٥ س . صفحاتهُ ٥٩٢ . كُتب باقلام مختلفة . جلدهُ شرقيٌّ بسيط . كُتب منذ نحو ١٥٠ سنة بيع في حلب . وليس هذا كتاب الحاوي لابي بكر الرازي الانصاري كما دُوّن سهواً في صدر الكتاب . وانَّما هو كتاب الحاوي في علم التداوي لنجم الدين محمود ابن ضياء الدين الياس الشيرازي من اطباء القرن السابع للهجرة رتَّبهُ على خمس مقالات في العلل والحميات وعلل الاعضاء الظاهرة والادوية المفردة والادوية المركَّبة . ولهذه المقالات نحو ٣٠٠ باب تنقسم اليها . وهو كتاب شامل منهُ نسختان في مكتبتي لندرة وليدن

العدد ١١ ارجوزة ابن سينا في الطب وشرحها . طولهُ ٣٢ س ونصف في عرض ٢٢ س . صفحاتهُ ١٥٢ . وُجد في طرابلس . وهذه الارجوزة

شائعة الشهرة. طُبعت في مصر وفي الهند وهي في نسختنا ٣٨ صفحة يليها شرح لمؤلف لم يُذكر اسمهُ (ص ٣٨) وانّما يقول انهُ وضعهُ للسيد الموقّر ابي الربيع ابن السيد محمّد ابن الامام الخليفة الاعظم. وهذا الشرح حسن الّا انهُ غير كامل لا يشرح سوى نصف الارجوزة بنيف قليل. وفي العدد الآتي نسخة اخرى منهُ ولعلَّ هذا الشرح هو لأبي الوليد الشهير بابن رُشد الذي ذكرهُ الحاج خليفة. ومنهُ نسخ في مكاتب اوربا

العدد ١٢ مجموع طبي. طولهُ ٢٨ س ونصف في عرض ١٩ س صفحاتهُ ٣٧٠ وسطوره بين ٢٢ و ٢٥ سطرًا في الصفحة. يحتوي اولًا هذا المجموع كتابًا في المادَّة الطبيَّة والادوية المأخوذة من النبات والحيوان والمعادن. غير ان هذا الكتاب ناقص في اوَّله وآخره لا يُعرف صاحبهُ وتاريخهُ وهو قديم كما يدلُّ على ذلك ورقهُ وخطّهُ. وقد اطلع عليهِ بعض الادباء في سنة ٩٧٦ ﻫ (١٥٦٨م). وثانيًا كتاب شرح ارجوزة ابي سينا الذي ورد ذكره في العدد السابق وهو للمؤلف نفسهِ. وهذا الشرح اقدم عهدًا من الاول كُتب منذ نحو ٥٠٠ سنة بخط نسخي انيق وابياتهُ المشروحة بالحرف الثُلث. وينقص ثماني صفحات من اول هذا الشرح ومن آخره صفحتان وُجد في حلب

العدد ١٣ ارجوزة المفضّل ابن المجيد في الطب. طولهُ ٢٠ س في عرض ١٤ صفحاتهُ ١٦٨ في كل صفحة ٢١ بيتًا بخط نسخي حسن جلدهُ اسود منقوش كُتب عليهِ في اوّلهِ بالعبرانيَّة بعض آيات من التوراة. وُجد في بيروت. هذه الارجوزة تحتوي على مختصر حسن في الطبّ وفروعهِ. ولها فصول كثيرة كُتبت بحبر احمر. امَّا مؤلفها فكان من نُطس الاطبَّاء في القرن السابع للهجرة. وفي باريس نسخة من هذه الارجوزة بخط المؤلف تاريخها سنة ٦٦٧ ﻫ (١٢٦٨م) وهي تُدعى هناك « نقع الغُلَل ونفع العُلَل» امَّا نسختنا فتاريخها سنة ٧٢٩. كتبها لنفسهِ « جميل (؟) بن ابراهيم الشافعي ». اولها:

الحمد لله الذي ابدى البشرْ   نارًا وماءً وهواءً ومدَرْ

العدد ١٤ كتاب علاج الخيل لابي عبد الله. طولهُ ٢٠ س ونصف وعرضهُ ١٥س صفحاتهُ ٥٢ في كل صفحة ١٩ سطرًا جلدهُ اسود. بيع في بغداد. صفحاتهُ الاولى مكتوبة بحروف نسخي جميل الى الباب السابع ثم باقيهِ بخط مستحدث

واولهُ: «الحمد لله رب العالمين الذي خلق الخيل ونصر بها اولياءهُ...» وللكتاب ٣٢ بابًا تشتمل كلّ ما يختصّ بامراض الخيل وعلاجها. امّا المؤلف فيدعى ابا عبد الله ليس الّا ويقول في مقدّمتهِ انهُ اخذ موادّ كتابهِ «من تأليف وضعهُ الامام جلال الدين السيوطي في معالجة الخيل واسقامها فذكرِ ما جرّب وما صحّ» وقد نقل نسختنا هذه الدكتور اوغست هنفر تريل مدرستنا الكليّة سابقًا. وفي نيّتهِ ان ينشرها في ويأنة عاصمة النمسة

العدد ١٥ — كتاب مختصر مفردات ابن بيطار. طولهُ ٢٠ س ونصف وعرضهُ ١٥ س. صفحاتهُ ١٤٢ ذات ١٧ سطرًا في الصفحة. غلافهُ مقوّى مورّد مذهّب تاريخهُ سنة ١٠١٤ (١٦٠٥ م) كتب بخط نسخي مُشرق. هذا المختصر وضعهُ الامام العلامة الجليل الشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ (١٥٠٥ م) ونقلهُ عن كتاب مفردات ابن البيطار الملقّب «ما لا يسع الطبيب جهلهُ» وسمّاهُ مجمع المنافع البدنيّة وهو مقسوم الى ثلاثة اقسام كلّ منها ٢٠ بابًا في الاغذية والامراض والادوية واول الكتاب: «الحمد لله الضارّ النافع. الذي جعل لكلّ داء دواء مصلحًا ونافع. احمدهُ على فضلهِ الواسع...» وُجد في حلب

العدد ١٦ — منظومة في الطب والحكمة للامام محمد بن القاسم الحريري. طولهُ ٢٠ س ونصف في عرض ١٤ س ونصف صفحاتهُ ٩٨ ابيات كلّ صفحة بين ٢٠ و ٢٢ سطرًا مجلد بقوّى احمر وازرق خطهُ نسخي وتاريخهُ نحو مائة سنة. بيع في بغداد. لم نجد ذكرًا لهذه المنظومة الطبيّة ولا لصاحبها الامام محمد بن القاسم الحريري الذي هو غير صاحب المقامات الشهير ولعلهُ ابنهُ. اوّلها:

يقول حلف العجز والتقصير(كذا) محمد بن القاسم الحريري
الحمد لله الحكم الثاني ذي الطَّول والمنّة والاسعاف

وممّا ذكر المؤلف انهُ اختصر هذه المنظومة من اقوال الشيخ الرئيس ابن سينا ودعاها «بُلغة الطبيب ونزهة الفاضل الاريب»

العدد ١٧ — كتاب انتخاب الاقتضاب المجموع على طريق المسئلة والجواب. طولهُ ٢١ س في عرض ١٥ ونصف. صفحاتهُ ١٢٠ وفي الصفحة ١٩ سطرًا. تاريخ الكتاب منذ نحو ٢٠٠ سنة وُجد في حلب. وهذا الكتاب مختصر من كتاب اطول صنّفهُ المؤلف الذي يُدعى ابا نصر سعيد بن ابي الخير بن عيسى بن

المسيحي. وهو احد افاضل الاطباء خدم الخليفة الناصر وتوفي سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) وقد دعا كتابهُ الاقتضاب لانهُ لخّص فيهِ مباحث كتاب الكليّات من قانون ابن سينا (راجع تاريخ الدول لابن العبري ص ٤١٦)

العدد ١٨ كتاب العلل وغاية الامل في الطب لجالينوس. طولهُ ٢٠ س في عرض ١٥ صفحاتهُ ٦٦ صفحة ذات ١٧ سطرًا جلده مقوّى اصفر بنقوش وُجد في دمشق. وهـذا الكتاب لم يُذكر في قائمة تآليف جالينوس التي دوّنها ابن ابي أصيبعة في طبقات الادباء. كما اننا لم نجد لمعرّبهِ ذكرًا. وامّا يقول في المقدّمة: «هذا مختصر في الطب كتبتهُ بعون الرب وجمعتُ فيـهِ كل دواء سريع العمل ولذا سمّيتهُ بسيف الفلل (كذا)». وهو على ثلاثة ابواب الاول في الاركان والاخلاط والثاني في احكام الاغذية والادوية المفردة والمركّبة والثالث في حفظ الصحّة. ولا تاريخ لهذا الكتاب الّا ان كتابتهُ تدلُّ على انهُ كتب منذ نحو ٣٠٠ سنة

العدد ١٩ مقالات من كتاب كامل الصناعة. طولهُ ٢٥ س في عرض ١٦ صفحاتهُ ١٠٦ واسطر كل وجه منهُ ٢٤ سطرًا. مجلّد بجلد احمر حديث. وخطُّهُ نسخي قديم يرتقي الى نحو ٥٠٠ سنة. امّا كتاب كامل الصنــاعة في الطب المعروف بالملكي فقد صنّفهُ علي بن عباس المجوسي لعضد الدولة في القرن الرابع للهجرة (راجع الحاج خليفة ٥: ٢٥). وفي نسختنـا المقالة التاسعة في ٦١ بابًا مضمونها العمل باليد من القطع والخياطة والجبر والبتر ثم المقالة العاشرة تُقسم الى ١٨ بابًا فيها وصف الادوية المركّبة والترياقات واللّعوقات والادهان والضمادات والمراهم والذّرورات. وقـد قدّمت في التجليد المقالة العاشرة على التاسعة. وبين هذا الكتاب كامل الصناعة وكتاب تقويم الابدان ليحيى بن عيسى بن جزلة علاقة كما ورد في الصفحة الاخيرة من الكتاب ويظهر من مطالعة هاتين المقالتين ان مؤلفهما كان من ائمة علم الطبّ .

العدد ٢٠ شرح الايلاقي. طولهُ ١٧س ونصف في ١١ س ونصف عرضًا. صفحاتهُ ٤٢٢ اسطر الصفحات ١٦ سطرًا كُتب بخط نستعلق سنة ١١١٠ (١٦٩٩ م) بيد مصطفى القادر المتطبب. في اوّلهِ صفحات باطار مذهّب. وفي هـذا الكتاب تأليفان لشرف الدين ابي عبد الله محمد الايلاقي احد تلامذة ابن سينا. الاول (ص ١—٢٣٦) يدعى «شرح ايلاقي» ولعلهُ مختصر قانون ابن سينا يبتدئ بما نصهُ:

« الحمد لله حق حمده » وعلى هامشه عدّة حواشٍ بيد الناسخ . امّا الثاني (ص ٢٣٧— ٣٢٢) فهو كتاب الاسباب والعلامات نظّمهُ القادري وزاد عليه مباحث عن البَحارين والسموم الى غير ذلك . وآخر هــذا الكتاب مفقود وُجد في حلب وجُلِّد بجلد عربي حديث

العدد ٢١ كتاب الموجز للقرشي . طولهُ ١٨ س في عرض ١٣ ونصف . صفحاتهُ ١٢٠ لكل صفحة ١٥ سطرًا . صدره محلّى بماء الذهب . مجلد بجوّى ابيض وردي . تاريخهُ نحو ٣٠٠ سنة مخطوط بخط عادي حسن بيع في حلب . والكتاب مقسوم الى اربعة فنون : في قواعد جزئي الطب اي علمه وعمله ثم في الادوية والاغذية المفردة والمركّبة ثم في الامراض المختصة بعضو عضو واسبابها وعلاماتها ومعالجاتها ثم في الامراض المختصّة بعضو دون آخر . امّا المؤلف فهو الشيخ الامام علاء الدين علي بن ابي الحزم القرشي المصري المعروف بابن النفيس توفي سنة ٦٩٦ ﻫ ١٢٩٦ وقيل غير ذلك . وكتابهُ الموجز المشتهر (الباقي للآتي)

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

٢٦ كفرحي ومدرسة مار يوحنا مارون

كفرحي مزرعة صغيرة موقعها فوق رابية جنوبي نهر الجوز على مسافة ثلاث ساعات من البترون في شرقيها . وكان لكفرحي شأن اعظم في ما سلف من الاعصار كما يُستدل على ذلك من الآثار القديمة وشواهد الكتبة من الموارنة

وفوق المزرعة كنيسة مار سابا الذي سبق ذكرها . وفي ظنّنا انها شُيدت في مكان معبد وثنيّ قديم . وعند مدخل الكنيسة قطعة عمود نُقش في واجهته اكليل الّا انهُ خاوٍ من الكتابة واذا دخلت البيعة رأيت صفيحة عليها كتابة ذهب قسمٌ منها وهي ترتقي الى سنة ٢٧٠ للمسيح . ومضمون الكتابة ان رجلين يُدعى احدهما مونيموس

(Μόνιμος) والآخر سيناس (Σαινας) اقاما هذا المذبح لاحد الآلهة لم يبقَ من اسمهِ الّا حروفهُ الاولى الثلاثة (.ΔΙΙ. ΑΡΑ)

واسم مونيموس نفسهِ اسم إلهٍ كان يتعبد لهُ خصوصاً اهل الرُّها يشركونهُ بمعبود آخر يدعى عزيزاً (Ἄζιζος) . ألّا ان عبادة ذاك الإله لم تكن محصورة في الرها ترى ذكره في الكتابات المكتشفة في حوران . وقد وجدنا اسمهُ مدوَّناً في عدَّة آثار وقفنا عليها في حمص ننشرها قريباً ان شاء الله . وما اسم مونيموس على رأينا سوى تصحيف لاسم آرامي يوافقهُ في العربيَّة «منعم» من الاسماء الحسنى عندهم كما يستدلُّ على ذلك بتقديم اسم العبد امامهُ فيقولون «عبد المنعم» وهو اسم بعض المقدَّمين في بشراي في القرن الخامس عشر (١) . وممَّا يؤيد رأينا بل يزيل عنهُ كل شبهة ان العلامة رينه دوسو (R. Dussaud) وجد اسم «منعم» (מנעם) بين اعلام كتابات الصفا (٢) وكانوا يريدون بهِ الإله الكريم الوهّاب . وبمثل هذه الصفات وصفهُ الكتبة اليونان والرومان عند ذكرهم هذا الإله ورفيقهُ عزيزاً

امَّا مدرسة مار يوحنا مارون فلا تبعد عن كفرحي اكثر من ربع الساعة مقامها شرقي القرية . والتقليد المحلّي مُجمع على ان هذه المدرسة بُنيت في مكان الدير الذي بناهُ القديس المذكور في نهاية القرن السابع . قيل ان هذا البطريرك زيَّن كنيسة ديرهِ بذخيرة ثمينة وهي هامة القديس مارون الناسك الشهير ابي الطائفة المارونيَّة وانَّ الدير دُعي مدَّة من جرَّاء ذلك بدير رأس سيدنا (ܪܫܐ ܡܪܢ) . وبقيت الذخيرة هذه في مكانها الى سنة ١١٣٠ فنقلها احد الرهبان البندكتيين الى مدينة فولينيو من اعمال ايطالية

ولا يخفى على من لهُ المام بتاريخ الطائفة المارونيَّة كم هي نادرة التفاصيل الراهنة عن اصل هذه الأُمَّة الجليلة واحوالها في الاعصار الاولى بعد ظهورها . وغاية ما نعرفهُ من هذا القبيل قد بلغنا بالاحاديث الشفاهيَّة التي لم تدوَّن الّا منذ عهد قريب فلا بُدَّ اذاً من شواهد كتابيَّة قديمة لتؤيد هذه الاخبار المنقولة . على اننا لا نيأس من اكتشاف مثل هذه الآثار الصادقة في زمن توفَّرت فيهِ الوسائل وانفتحت الخزانات الادبيَّة وظهر للعيان ما لم يكن قبلًا في الحسبان . واملنا اوطد في اهل هذه البلاد فانهم اذا بحثوا

١) راجع تاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ١٤١) وروايتنا المنونة «حبيس بحيرة قدس»
٢) راجع كتابهُ Voyage archéolog. au Safa, N° 78,83, 412

لدى الخاصّة وفي الاديرة القديمة وفي خزائن الدار البطريركيّة او الكراسي الاسقفيّة القديمة لا نشك انّ مساعيهم تتكلّل بالنجاح فيجدون في الزوايا خبايا (١

واذا عدنا الى تاريخ دير مار يوحنا مارون لا نجد لذكرهِ اثرًا قديمًا. وانّما يروي الرواة انّ منشئهُ عاش ودُفن فيهِ. وقد عُني مرارًا اصحاب الهمة بالحفر فيهِ لعلهم يقفون على قبرهِ. لكنّ هذه الابحاث لم تأتِ حتى الآن بثمرة مع ما وُجد هناك من المدافن.

وفي سلسلة بطاركة الطائفة المارونيّة (المشرق ١:٢٥١) ان خلفاء مار يوحنا مارون سكنوا هذا الدير وفيهِ قُبر كثيرون منهم. ولهذا المقام ذكر في تاريخ الصليبيين (٢ يدعونهُ مار مارون كفرحي (S. Maron de Caphrai)

ثمّ نُقل الكرسي البطريركي الى دير سيدة يانوح وبقي فيهِ الى عهد البطريرك دانيال الشاماتي فأُعيد الى كفرحي. ثمّ جرى بعدئذٍ على هذا الدير ما جرى من حروب ونكبات وبلايا كادت تذهب بآثارهِ

قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤ (ص٢٠٧): « وبسبب كثرة الحكّام والاغراض كثر الظلم وكلفوا الرعايا بدل المال مالَين وقبضوا على الرؤساء في القرى... وكان القس يوحنا الاجبعي مترئسًا على دير القديس مارون في قرية كفرحي فوشى بهِ اهل بقسميَّة الى ابن سيفا حتى قبض عليهِ واهانهُ وسامهُ ما هو فوق طاقتهِ فترك الدير من ثمّ وارتحل ومن ذلك الوقت خرب الدير وخربت ايضًا بقسميَّة التي كانت لطائفة الملكيَّة »

وبقي ذلك الدير خرابًا صفصفًا الى ان جدّد البطرك يوسف اسطفان بناءهُ ما كان متهدّمًا فيهِ باواسط الجيل الثامن عشر واسكن فيهِ بعض رهبان. وكان ذلك بعد رجوع البطرك المذكور من الكرمل وعند زيارتهِ الرعيَّة فلمَّا مرَّ على الدير المذكور لم يجد سوى آثار دارسة واطلال طامسة فحركتهُ الغيرة الدينيَّة على ارجاعهِ الى رونقهِ القديم فوجّه اليهِ القس يوسف الحدّاد والقس الياس من ريفون ليعتنيا بتجديدهِ

وفي ابَّان زيارة المطران جرمانوس ثابت لابرشيَّتهِ جُبيل والبترون رأى افتقار رعيَّتهِ

---

١) ومَّا نُشر مؤخرًا في هذا الصدد كتاب الخوري نو الافرنسي (Opuscules maronites) وكذلك مرَّ في المشرق (٢:٢٦٥ ; ٣٦٥ ; ٤٥١) بعض مقالات في هذا الصدد

٢) راجع Rey : *Colonies franques*, p. 359

الى مدرسة فارتأى تحويل الدير المذكور الى مدرسة يتعلم فيها من كل مقاطعة في لبنان ولدانٍ . فصادق البطريرك يوحنا الحلو على هذا المشروع في سنة ١٨١١ وعضدهُ القاصد الرسولي السيد لويس غندلفي

وفي سنة ١٨١٨ اجمع البطريرك والاساقفة على ان يجعلوا مقام مطران جبيل والبترون في مدرسة مار يوحنا مارون . او الاحرى ان يقال ان ابرشية جبيل والبترون صارت ابرشية البطريرك الخاصة فيجعل لهُ فيها نائباً احد الاساقفة الذي مركزهُ في مدرسة مار يوحنا مارون . وممن زادوا هذه المدرسة رونقاً ووسعوا نطاق تعليمها الطيب الذكر المطران يوسف فريفر الذي ترأس عليها مدة وافرغ كل مجهوده في نجاحها فصارت في طبقة المدارس الثانوية التي يفتخر بها الوطن منذ نصف قرن . وقد عزز سيادة المنسنيور بطرس ارسانيوس رئيسها الحالي دروسها بعد وفاة السيد يوسف فريفر فبلغت في هذه الأيام اوج عزها فحفلت بالتلامذة وازدهت بالعلوم . ومما سرنا انَّ طلبتها لا يدرسون فقط اللغة العربية واللغات الاجنبية بل يتقنون ايضاً اللغة السريانية فيكتبونها ويتكلمون بها (١ . ولولا خوفنا من ان نخرج عن الحدود التي تحرَّيناها في مقالتنا لانبسطنا في وصف هذه المدرسة ومحاسنها لا زالت راقية معارج التقدُّم والفلاح (ستأتي البقية)

القس يوسف كلداني الحلبي الماروني

بقلم الاب الفاضل القس جرجس منش الحلبي الماروني

ذكر الصديق بركة . هذا ما قالهُ الحكيم في سفر الامثال (١٠ : ٧) فنشط اليد الضعيفة الى تسطير ترجمة هذا التقي النقي الابر مثال التقشف ونموذج الفضائل القس يوسف كلداني المشهور في اواسط القرن الماضي قريباً . ابتغاء ان يذكرهُ قومهُ ويتأسوا

١) ونغتنم هذه الفرصة لتقدمة فروض الشكر لسيادة المنسنيور بطرس رئيسها الفاضل لما لقينا في مدرسة مار يوحنا مارون من الحفاوة والاكرام كلما حللناه في رحلتنا الى بلاد البترون . كما اننا نشكر لحضرة الخوري بولس طعمه لطفهُ لما افادنا بهِ من الاعلامات عن كفرحي ومدرستها وقرى بلاد البترون . وبعض الفوائد التي دوَّنَّاها في مقالتنا قد استفدناها من فضلهِ

بسيرتهِ الفاضلة فيكون لهم واعظاً بعد الممات افضل منهُ في الحياة

هذا ولا بُدَّ لي قبل بسط هذه الترجمة من الشكر لبعض انسباء الفقيد لما تكرَّموا بهِ عليَّ من الافادات في ذلك المعتمد

١ ترجمة الفقيد

هو يوسف بن اليـاس بن بطرس بن يوسف بن بطرس بن يوسف خيَّاط (١ الكلداني الطائفة الموصلي النِّجـار (٢ الذي قدم الشهباء مع اولادهِ الاربعة (بطرس وزخريَّا واسحق وقسطنطين) في اواخر القرن السابع عشر او اوائل الثـامن عشر (٣ لماطاة التجارة او الصناعة فاصاب من احداها حظًّا وافرًا كما يستدل على هـذا من يسار اعقابهِ. وعُرفت عائلتهُ مذ ذاك بعائلة كلداني بعد ان انحازت الى الطائفة المارونيَّة (٤

وُلد صاحب الترجمة في سنة ١٨٠٦ وهو ثاني اخوته الثلاثة بطرس وشكر الله ونعمة الله. فاشتهر شكر الله بالتقى فكهَّنهُ الطيّب الذكر المطران بولس اروتين حكيم في ٣١ تموز من سنة ١٨٤٣ وحلاهُ باسم جبرائيل فاجهد نفسهُ باتمام الفروض الكهنوتيَّة الى ان استشهد في كوانن سنة ١٨٥٠ المشهورة وعُرف نعمة الله بسموّ المدارك فرقَّاه المطران الآنف الذكر الى درجة الكهنوت مع اخيهِ ذاك في الشهر والسنة السابق ذكرهما وسمَّاهُ باسم ميخائيل فظهر كاهنًا تقيًّا غيورًا. ولمَّا عزم المثلَّث الرحمة المطران يوسف مطر على تشييد كنيسة القديس الياس الجديدة (٥ سيَّر الاب ميخائيل الى اوربة طلبًا

١) سُئلتُ: هل ان عائلة خيَّاط الكلدانية المنتشرة اليوم في جهات الموصل تمتُّ بقرابة الى هذا يوسف. فأجيب: لا اعلم لان ذلك يصعب تحقيقهُ بعد كلّ هاتيك السنين المتطاولة

٢) اعتمدتُ في تسلسل هذا النسب وفي غيرهِ على سجل المعمَّدين المحفوظ في دار الاسقفيَّة المارونيَّة العامرة

٣) لم اتحقق زمان قدوم الجد الاول الى الشهباء. واقدم ما رأيتهُ في السجل المذكور عماد ابنة ابنهِ بطرس في سنة ١٧١٤ م

٤) من المشهور انَّ الطائفة المارونية قد انضمَّ اليها عيال من الطوائف الاخرى كهذه العائلة الكلدانيَّة وعائلة بكاز الكلدانيَّة القادمة من جهات ماردين في أواسط القرن الثامن عشر وعائلة اروتين حكيم الارمنيَّة القادمة من جهات العجم في منسلخ القرن السابع عشر وغيرها من العائلات اليعقوبيَّة على ما شهد العلامة السمعاني نفسهُ. واخصّ اسباب انضمام امثال هؤلاء كان امَّا ليتملَّصوا من شرّ الاضطهادات التي اثارها اونشـذ الهراطقة وامَّا لانهم تكتلكوا على يد الموارنة وامَّا لانَّهم لم يجدوا لهم كنيسة وكهنة من طائفتهم. هذا ما نعرفهُ ومن كان يعلم غير ذلك فليفدنا بهِ مشكورًا

٥) شرع هذا الاسقف بتشييدها سنة ١٨٧٢ واتمَّهُ نسيبنا المأسوف عليهِ القس جرجس منش

لاسقاف المؤمنين فسار هذا الى رومية واستماح من السعيد الذكر البابا بيوس التاسع الاذن بذلك فاجابهُ الى سؤلهِ . فجال اوربَّة واميركة وآسيَّة وتمثَّل لدى اعاظم الرجال فحاز منهم اعظم انعطاف وتمكَّن من جمع اموال وافرة . ثم وفد بعدئذٍ على الحضرة البابويَّة فشملتهُ بناظر الرضى وحبتهُ النعم السامية كالتقليد بالصليب والتختُّم بالخاتم والاتشاح بستر ممتاز فوق الملابس الكهنوتيَّة . فعاد الى وطنهِ شاكرًا حامدًا وما مرَّ على عودهِ مدةٌ من الزمن حتى فاجأهُ مرض عضال اورده ورد المنيَّة في ٢٨ آب من سنة ١٨٨٢ رحمهُ الله تعالى . وكانت وفاة بطرس الذي ظلَّ عالمًا في سنة ١٨٤٩

اما يوسف فعكف منذ صغرهِ على السيرة الفاضلة فلم يتقدم سنة من سني حياتهِ حتى زاد في اتباعها اجتهادًا . واقبل بعد ذلك على القنوت واوسع لهُ في جَنانهِ مكانًا رحيبًا فتمكَّن فيهِ واحلَّهُ من الاعتبار مقامًا رفيعًا حتى كان يُشار اليهِ بالبنان . ولمَّا بلغ الشبيبة اشار عليهِ المطران بولس الآتي الذكر ان ينخرط في سلك الطلبة الاكليريكيين ليقتبس معارفهم استعدادًا الى اقتبال الكهنوت فرفض تواضعًا . فالحَّ عليهِ كثيرًا فاعتذر اليهِ بعدم اهليتهِ وجدارتهِ لهذه الدرجة السامية وهكذا قضى هذا الاسقف الفاضل دون ان ينال منهُ امنيَّتهُ

ولمَّا تسقَّف الحميد الاثر المطران يوسف مطر عمد الى اتمام مشروع سالفهِ وعمل على ان يرقي يوسف الى الكهنوت غير صاغٍ الى اعتذاراتهِ فرأى المترجم بهِ ان يستعين باثنين من شيوخ الطائفة ووجهائها ليبيّنا للاسقف عدم جدارتهِ . فابى الَّا ان يكهنهُ واوضح لهما ما ينجم عن كهنوتهِ من الخير والفوائد الجمَّة . فعادا الى مرسلهما واعلماهُ باخفاق سعيهما ورفض الاسقف وعزمهِ على سيامتهِ كاهنًا . فعلم اذ ذاك ان الدعوة علويَّة فانقاد لها طائعًا وعكف على ترويض نفسهِ تأهبًا للدخول في باب الرتب المقدَّسة ولم يمضِ على الشماس يوسف بضع اشهر حتى رقَّاه الاسقف الى درجة الكهنوت في ١٢ ايلول احد شهور سنة ١٨٥٢ فكان ليوم سيامتهِ رنَّة ابتهاج ردَّدها جميع الناس لما توسَّموا فيهِ من الصلاح والاصلاح

لم يخيّب الاب يوسف آمال الناس على اختلاف مشاربهم بل اقبل على حراثة كرم

سنة ١٨٩٣ . واليوم يسعى في رصفها بالبلاط سيادة حبرنا المفضال السيد يوسف دياب وفَّقهُ الله الى كلّ ما يرضيهِ تعالى

دبّه بعزم لا يعرف ما الكلل وجدّ لا يدري ما الملل فكان يخصص وقتاً للصلاة والتأمل والانقطاع الى الله تعبـداً وحيناً لعيادة المرضى والمحتضرين وطوراً لافتقاد المسجونين وتارةً لتعزية الحزونين وكان لا يرغب في التردُّد الى الاغنيـاء والشرفاء والمجتمعات العموميَّة بل يؤثر عليها الاجتماع بالفقراء لتعليمهم قواعد الايمان وارشادهم في طريق الخلاص ومساعدتهم باحتياجاتهم وضروريَّاتهم. ويجهـد نفسهُ بألَّا يكلّم النساء الَّا حيناً كنَّ يعطينهُ الصدقات ليوزّعها على المساكين الى غير ذلك مَّما ستراهُ في تلخيص فضائله

٣ فضائل الفقيد

قال احد عارفي الاب يوسف: أنهُ لم يكن الَّا روضاً ازدان بأشجار الفضائل المثمرة ثمار الاعمال الصالحة الدانية القطوف. وهـذا ما اجمع عليهِ سائر مواطنيهِ على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم

ولا بدع فانهُ كان قد رُبّي على التديُّن والتعبد والفضيلة منذ نعومة اظفارهِ حتى صارت فيهِ كغريزة راسخة في سويداء قلبهِ لا يرى عنها منصرفاً او شاغلاً بل كلما تقدم سنًّا ازداد بها شغفاً ولها اتباعاً. فكان اذا اقبل على الصلاة ومناجاة الخلَّاق سبحانهُ فضَّلها على كل خير سواها في الدنيا فكانت تمرُّ عليهِ الساعات الطوال دون ان يفتكر في الاكل والرقاد. وكثيراً ما كان اقاربهُ يجدونهُ صباحاً جاثياً للصلاة كما تركوهُ مساء.

وكان شديد الحب لفضيـلة الطهارة واذا اضطرَّ الى استماع مسئلة من النساء كان يصغي اليهنَّ مطرقاً بنظرهِ الى الارض وكان يجتنب كثيراً الكلام معهنَّ في كلّ مقـام وكثيراً ما تلوح على وجههِ امائر الكدر والاشمئزاز عند سماعهِ ان احد الناس ارتكب ما يشوّه محيَّا الطهارة الجميل

واما الغنى الذي يطمح الى كسبهِ الناس ويُنضون ركاب الجدّ لاجل تحصيلهِ فكان يمقتهُ مؤثِراً عليهِ الفقر الاختياري ويتكدَّر حينما يرى الشبَّان يتخلَّون بملابسهم الحريرية المفوَّفة ويزدانون بانواع الزينات الفاخرة. واذا اعترض احد على ثيابهِ الرثة كان يجيبهُ بكل سذاجة: « ان المعلم الالهي يعلمني الفقر بمثالهِ » فكأني بهِ اراد ان يجعل هـذه الفضيلة كاساس وطيد الاركان يبني عليهِ فضائلهُ السامية

وقد ازدان بفضيلة التواضع بالرغم عن رفعة مقامهِ فكان يحسب نفسهُ انهُ انسان

خاطئ لا يستحق ادنى اعتبار مرددًا عليه قول المخلص لذكره السجود: « من يرفع نفسهُ يتضع ومن يضع نفسهُ يرتفع » وبناء عليه كان يرغب عن الزائلات الى الباقيات ويهرب جهدهُ من المديح العالمي واذا سمع شخصاً يطرئ فضائلهُ وحسن صفاته كان ينفر منهُ ولا نفور الظبي من مقتنصهِ

وخلا كل ذلك فان تقشُّفهُ وشظف عيشهِ افضى به الى الهزال فكان لا يأكل من الطعام الّا الضروري لقيام الجسد ولا يشرب الماء الّا ابان الصيف الّا ليطفئ ظمأهُ. ومع شيخوخته حافظ كلّ المحافظة على الصيامات باسرها دون ان يخل بشيء منها بل يبالغ فيها. وممَّا يُذكر عنهُ انهُ دُعي يوماً عند اسقفه الى مأدبة طابت مأكولاً ومشروباً ولمَّا لم يستطع الى الهرب سبيلاً كان يُذيف الملح ببعض المآكل لئلا يستلذَّ بها ولولا الطاعة لابيه لحار العيشة الرهبانيَّة على كلّ ما سواها لأنهُ تاق الى اتباع طريقتها منذ صباه

وممَّا عُرف به وسارت بذكره الركبان ارتياحهُ الى اسعاف الفقراء والعطف على من ضرب على يدهم الدهر فغدوا من ذوي البأساء فيساعدهم لا من صدقات المؤمنين فقط بل من ماله وثيابه واثاث بيته ايضاً مع الاعتذار لهم عن عدم مقدرته على الاكثر من ذلك. واذا جاءهُ معدم طالباً نداهُ وليس لديه ما يلبي ملتمسهُ كان يخاطب آل بيته في ذلك وهو يقول لهم: « دعوني آخذ هذا الرداء (مثلاً) لهذا الفقير والله لا يضيع اجر المحسنين لانهُ قال عزَّ اسمهُ: من يعطِ مسكيناً يُقرض الله » ولم يكتفِ بمساعدة فقراء مذهبه وبلدته بل كان يساعد الغرباء عنهما ايضاً فيواسيهم ويعزّيهم في شدائدهم ويؤاسيهم في ضيقاتهم ويسعفهم في احتياجاتهم ويحثُّهم الى اكتساب الآداب والفضائل ولدينا رسائل عديدة في مثل هذا المعتمد

وفي الجملة فان القلم يقصر دون تبيان حسناته وفضائله وغيرته ووداعته وتقواه وطيب قلبه وسلامة نيَّته ومؤاساته الفقراء ومناقبه الحميدة التي اهلتهُ لاعلى درجة من الاعتبار حتى عدَّهُ غير واحد من الناس قديساً مجيدًا

٣ وفاة الفقيد

١٠ ادركت الاب يوسف الشيخوخة حتى ادركتهُ عوارضها التي اعيت نُطس الاطباء عن شفائها. فبقي لا يعبأ بها وهو مداوم على العمل كعيادة المرضى وافتقاد

العافين والصلاة والصوم والارشاد وقضاء الحلات البيعيَّة كما كان دأبهُ في حال صحتهِ الى ان وقع يوماً من على المذبح بينا كان يتلو القداس الالهي فرضَّ جنبهُ واخذ مذ ذاك الحين يتخوَّن المرض جسمهُ نحو ثلاثة ايام حتى فاضت روحهُ الكريمة الى خالقها سبحانهُ في غلس يوم الجمعة الواقع في العاشر من شهر شباط احد شهور سنة ١٨٨٢ وهي السنة السادسة والستُّون من عمرهِ والثلاثون لقسوسيتهِ. وقد تحفَّز للمنيَّة اي تحفَّز بنوع انهُ في يوم انتقال نفسهِ تزوَّد بكل الحيات وانتباه القربان الاقدس من بعد اقتبالهِ سرَّ المسحة ولم يَغب عن الحس الَّا بضع دقائق

ولمَّا اسفر الصباح انتشر نعيهُ في انحاء الشهباء فاضطربت الاذهان وانقلبت الناس زرافات ووحداناً على منزلهِ متبنين بلثم يديهِ. ثم سير بنعشهِ محمولاً على الأكف الى الكنيسة المارونيَّة الكاتدرائيَّة حيث صلى عليهِ فريق من علية الاكليروس يتقدَّمهم سيادة الحبر المثلَّث الرحمات يوسف مطر ويصحبهم وجهاء المدينة وادباؤها على اختلاف النحل والملل حتى غصَّت البيعة على رغم اتساعها. ولمَّا رأى الاسقف كثرة الوفود امر بان تبقى الجثة الى اليوم التالي معروضةً لاكرام الناس الذين كانوا يتواردون أسراباً وافواجاً لوداعهِ واستلام يديهِ. وكثيرون منهم كانوا يأخذون بعض آثارهِ كذخائر ممَّا يدل على اعتبارهم اياه لطاهر سيرتهِ وسريرتهِ. وعندما تنفس صباح ذلك اليوم التالي (السبت) أُقيم لهُ مأتم آخر انبرى في ختامهِ حضرة الاب الفاضل الخوري نيقولاوس كيلون وأبَّنهُ بعبارات استنزلت العبرات وسرد ترجمة حياتهِ بوجيز الكلام وعدَّد المحامد الكثيرة التي ازدان بها والمبرَّات الوفيرة التي آتاها نحو الفقراء على اختلاف مذاهبهم. ثمَّ أُودع اللحد المهيَّأ لهُ في الكنيسة امام هيكل سلطانة الوردية المجيدة بين مظاهر التكريم والترحيم. اجزل الله ثوابهُ وجعل الجنَّة منقلبهُ ومآبهُ

ولقد رثاهُ كثيرون من الشعراء والادباء بقصائد من جيد الشعر اجتزأنا منها بما يأتي رعايةً للمقام. قال حضرة الاب العالم الفاضل والشاعر المجيد المأسوف عليهِ القس اوغسطين عازار الماروني من قصيدة طويلة:

اذا لم يكن نفعٌ من المرء يُرتجى	فما هو في الدنيا سوى عضو ميّتِ
رعى الله بن في البرّ انفق عمرهُ	وعاش بدنياهُ بزهدٍ وحكمةِ
ألا فليعش كلّ امرئٍ بين قومهِ	كما عاش في الدنيا زهيّ السريرةِ

هو الكاهن المشهور بالبرّ والتقى ... هو المتقي عن كلّ وصف وشهرةِ
اذا افتخرت مصر بيوسف عصرها ... ففي يوسف الشهباء عزّي وفخرتي
وان باهت الأيَّام عجباً بذكرهِ ... فلا عجب اذ فيهِ كلّ عجيبةِ
لقد دبَّ بالاقدام طفلًا مباركاً ... وشبَّ على إقدام كلّ فضيلةِ
وطلَّق دنياهُ طلاقاً مؤبدًا ... وهام بعشق النزّة العلويَّةِ
وجاهد في سُبْل الجهاد كناسكٍ ... وحصّن حصن النفس من كلّ شهوةِ
محامدهُ قد اعجزت كلّ مادحٍ ... كما عجزت عن نعيهِ كلُّ قدرةِ
أأنعي رسولاً وهو اعظم مرسل ... وخير اناء مصطفى للكنيسةِ
أأبكي شهيدًا وهو اكبر شاهد ... بتقواهُ للحق المبين المحجَّةِ
أأندب واويلاهُ افضل ناسكٍ ... وقد فاق كلّ الناسكين بخلوةِ
أأرثي عفيفاً قد تسامى بعفةٍ ... شذا عطرهِ قد فاح بين البريَّةِ
أأحصي سجاياهُ وتعدادها غدا ... يفوق نجوم القبَّةِ الفلكيةِ
فقدتم ايا رسل المسيح يتيمةً ... على فقدها كلّ المرائر شقَّتِ
على فقدهِ تبكي السماء وارضنا ... فهذي باحزانٍ وتلك ببهجةِ

وقال الشاعر الاديب امين افندي الموصلي احد ادباء المسلمين:

فردٌ همام كان ما بين الورى ... يأوي الفقيرَ ولليتامى يسعفُ
قد حلّ في الدنيا مطيعاً ربَّهُ ... وعلى العبادة في الليالي يعكفُ
يخشى القيامة راجياً ملكوتهُ ... يتلو اناجيل المسيح يعرّفُ
لمَّا رأى الدنيا الدنيَّة كلّها ... ظلًّا يزول ونور شمس يكسفُ
وتحقَّقت كلّ الخليقة عندهُ ... اضغاث احلام لديهِ تزخرفُ
طلب الاقالة واشتدَّ بربهِ ... فلكم ترى ملكاً بجنحٍ يحتفُ
صعدوا بهِ نحو السماء وقد غدا ... طرف اليمين جلوسهُ يتشرَّفُ
جاء النداء فارّخوهُ بطيّبٍ ... اعطيت ذا ملكوتهُ يا يوسفُ

سنة ١٨٨٢

في الخيال

بقلم الاب لويس رتزڤال اليسوعي

١ تعريف الخيال واقسامهُ

سبق لنا القول ان من جملة حواسّنا الباطنة قوةً جُعلت لاستثبات صور كافة المحسوسات واستحضارها في حين غيبتها فسمّينا تلك القوَّة خيالًا او مخيلةً ومما يستخلص

ترّا من تحديدها ان التصورات الخياليّة لا تنحصر على مجرّد تمثيل الاشياء التي قد طرقت عيننا فقط بل انها تتضمّن ايضًا تكرار انفعالات سائر حواسنا (imagination reproductrice)، فمعلومٌ اني اذا سمعت خطيبًا انيقًا ترتاح اليه النفس امكن متى شئت ان أُحيي في ذهني لا هيئة الخطيب وحسن ايمائه فقط بل صوتهُ الجهورد والقاءهُ البديع وكذا قُل عن سائر ما أثّر قديمًا في أذني وكلّ مشاعري وانما اصطلحت الناس على لفظة « صورة » دلالةً على اشدّ المحسوسات فينا اثرًا لافضل البصر واختلاطه في معظم حواسنا. قال المسيو هنري جولي (١ ان مقلتينا منفرجتان من الغدوّ الى الآصال ويندر ان لا يتيسّر لنا رؤية ما نذوقهُ او نتنسّمهُ او نمسّهُ او نسمعهُ وبعكس ذلك كثيرًا ما يتعذّر على سائر الحواس ان تشترك في ادراك ما ترمقهُ العين فلا حرج اذًا من تغلّب فعل البصر على افعال اقرانهِ واطلاق اسم الصورة على تأثيرات كافة الحواس »

هذا وقد يتّفق ان صور الاشياء تتشخّص امام عين مخيلتنا على نمط يخالف مثولها الاول فيتولد من اقتران تلك التمثلات الجزئيّة الواقعيّة صورة جديدة لا مقابل لها في عالم الكائنات فهي اذ ذاك من مبتكرات خيالنا ومبتدعاته. امّا اذا اتت تلك الصورة مكسوّة برونق يخلب الاذهان ويقضي بالعجب والاستحسان فكانت حينئذٍ من مولدات الخيال المستنبط او الخالق (Imagination créatrice) وهي ملكة شريفة لم يُرزقها في اسمى درجاتها الّا الرهط القليل ممّن نبغوا في فنون الخطابة والشعر والتصوير والموسيقى وغيرها من نواضر الفنون. فمجمل القول في تنويع المخيّلة انها تنقسم الى قسمين قسمٌ دأبهُ اعادة صور المحسوسات الغائبة وهي قوّة مستقرّة في كلّ منا على درجاتٍ مختلفة وسنيّن ما لها من النصيب الوافر في جميع حركاتنا وسكناتنا وقسمٌ يتصرّف في تلك التمثلات تصرُّف الحرّ فيُخرج الطارف من التالد والساطع البهي من القاتم المطموس

٢ مركز الخيال

وللخيال صفاتٌ واقسام غير ما ذكرنا يطول بنا شرحها ولا طائل في ذكرها ولذا

(١ راجع كتابهُ H. Joly : *l'imagination*

نضرب عنها صفحًا ونتخطّى الى البحث في مركز هذا الحس الباطني. من الناس قوم جعلوا الحواسّ الخارجية آلة للخيال ومستودعًا لتصوراته وهاك وجه احتجاجهم يقولون: « لا غرو ان الحياة في الحركة عمومًا وخصوصًا وبالتالي لا حياة بجاسّة من حواسّه الّا في مداومة العمل. امّا هذا العمل فلا يخلو ان يكون على احد نوعين امّا هو تأثير يأتي من الخارج فتنطبع آثاره في المشعر وامّا عملٌ داخلي يقوم به الحس نفسهُ بعد غيبوبة المحسوس. مثال ذلك العين اذا ابقيتها مفترحة لا تبرح متأثرة ممّا يحدق بها من المرئيات وهي حينئذٍ مباشرة عملها العادي الاولي لكنّك اذا غمضتها فانها لا تنفك سائرةً مسيرها وقائمة بوظيفتها ولو على اسلوب جديد لانك تعاين ضمن جفونك المرتجة صورة ما كان يحرّك سابقًا شبكة عينك وانّ هذه الصورة الخيالية الّا نتاج العين ذاتها ومعلول عملها الثانوي. فثبت اذًا على رأيهم ان مركز الخيال في المشاعر الخارجية. ثم يردفون قولهم بان ظواهر حالة النوم تأتي مصداقًا قاطعًا لصحّة ما يذهبون اليه لان حينئذٍ لا حسّ من حواسنا الّا ويصدر عملًا باطنيًا حين تكفّ المدركات الخارجية عن كلّ تمايل فهي عين الراقد تُصوّر رسوم الكائنات وهي اذنهُ تُلحن الالحان وهلمّ جرًّا حتى يأتلف من كل هذه التمثلات شبه حياة تظهر في الحلم والحلم مرجعهُ الى الخيال. فالخيال اذًا مستقرّ في المشاعر يبرز افعالهُ عند منع الخارجيات عن العمل »

هذا قول تلك الفئة. امّا نحن فمع ضعف حصافتنا لا نرى وجه الصواب في هذا الرأي. وكفانا لدحضهِ ان نقول:

اذا كان الامر كما تزعمون فيتحتّم على جميع حواسّنا ان تشتغل طول ساعات نومنا دون سكون ولا كلل اي بعبارة أُخرى ينبغي ان نحلم كلّما اوينا الى الرقاد احلامًا تشترك فيها جميع مشاعرنا وهذا مردود من وجهين: اولًا من كوننا لا نحلم كل ليل. وثانيًا من كون احلامنا غير مركّبة عادةً من افعال جميع حواسنا. وهب الامور تجري كما يتوهّمون (لانهم ربّما اعترضوا اننا نحلم دائمًا ولكن لا ننتبه لكل احلامنا لخفّة وطأتها وسرعة تناوبها) فهل تصح مع ذلك نتيجتهم بان مركز المخيلة الحواس الخارجية؟ لا نظن ولسنا نرى في اقاويلهم الّا افتراضًا محمولًا على الحدس لا يمكنهم اثباتهُ

وعندنا ان مقرّ الخيال هو الدماغ نفسهُ. وهذه اخصّ البراهين التي نسند اليها مدّعانا. وهي على ظننا ادلّة واضحة لا تُبقي وراءها مُندحةً للريب

اولًا الاختبار الذاتي وذلك اننا كلما اكثرنا من إعمال المخيلة في مسألة من المسائل نشعر بثقل يعقبهُ بعض الوجع والعيّ لا في حواسنا الظاهرة لكن في طوائف معلومة من الحُق الدماغي فالبعض يشكو المًا في الصدغين والبعض في الجبهة او في قة الرأس وهذا لم يكُ ليحدث لو لم يكن مركز المخيلة في الدماغ والّا لصح القول بان بطرس يشتغل وبولس يتعب

ثانيًا لنا برهان آخر اقوى من المتقدّم لا ندري كيف لم يهتدِ اليه المناظرون وهو ان المخيلة لا تزال تُنجز عملها ولو تلفت المشاعر الخارجية وفسدت. والامثال من هذا القبيل اكثر من ان تُعدّ يوردها الخصوم بكل سذاجة وهي تُبطل زعمهم من حيث لا يشعرون. فكلٌّ يعلم ان فاقد البصر لم يفقد قوَّة الاستحضار التي تمكّنهُ من ان يصوّر في ذهنهِ صور الاشياء التي وقع عليها بصرهُ سلفًا. وكذلك الاصم فانّهُ يعيد في ذاتهِ متى شاء الاصوات والألحان لا بل يُعنى احيانًا بوضع الانغام الموسيقيّة موقعةً على آلات مختلفة واشهر ما يُحكى من ذلك امر بيثوفين (Beethoven) الموسيقي الالماني الطائر الشهرة فانّهُ رغمًا عن الصمم التام الذي اعترى اذنيهِ كان يقوى على تأليف روايات موسيقيَّة. ومما وضع في اثناء ذلك روايتهُ الموسيقيّة (opéra) المسمَّاة فيدليو (Fidelio). فماذا نقول بعد شواهد كهذه ؟ وان كان حرمان الحس لا يحول دون استتمام المخيلة افعالها المقابلة لهذا الحس فهل يجوز جعل المخيلة في المشاعر الخارجيَّة

ثالثًا واخيرًا قد ثبت دون مشاحة ان الخيال يضطرب ويتشوَّش في قضاء مهنّتهِ اذا لحق بالدماغ صنفٌ من الشوَه امّا هذا الاضطراب فيتعاظم على قدر تفاقم الخطب وربّما اختلّ الشعور تمامًا اذا كانت الصدمة الخارجيَّة او الداخليَّة فوق طاقة المبتلى. والغريب في ذلك ان هذا يحدث ولو كانت المشاعر الخمس حائزة تمام الصحَّة والكمال فكيف يكون مركز المخيلة في هذه المشاعر فتبقى المشاعر سالمة عند فساد المخيلة. أفليس عدم فساد المشاعر دليلًا واضحًا على ان مركز المخيلة ليس هو فيها بل في الدماغ كما قلنا. وهذا البرهان نظنّهُ كضربة قاضية على المعارضين لا يدع لهم مناصًا ومجالًا للمكابرة. لان الامتحان وعكسهُ (l'épreuve et la contre-épreuve) يشهدان كلاهما على صواب رأينا فلينصف المنصفون

كان يجب بعد هذا التفنيد ان نبيّن جليًا اي طائفة من الدماغ هي آلة الخيال.

وقد رأى الاقدمون ان مكان الخيلة في التجويف الاوسط من الدماغ وهو قول لا نتصدَّى لاثباتهِ او لتفنيدهِ لعدم وجود ادلَّة قاطعة فلا بأس ان تدع العلم يواصل ابحاثهُ حتى تُسفر عن نتيجة راسخة لا تُستهدف لسهام الانتقاد. بيد اني اشك ان يتيسَّر يوماً للعلماء تعيين قسم الدماغ المختص بكل من حواسّنا الباطنة

٣ ظواهر الخيال

يحسن بنا بعد الفحص عن مركز المخيلة ان نتتَّقى آثارها في تفاوت اعمالها وظواهرها. لا غرو ان التصورات الخياليَّة تتوالى فينا حال يقظتنا توالياً غير منقطع اذ لا يتأتى لنا ان نفتكر فكرًا واحدًا دون تداخل الخيال كما سنبديه. بيد ان لهذا التداخل صفاتٍ تتميَّز بتمييز احوالنا الشخصيَّة فمتى كنَّا في حالتنا العادية القانونيَّة (état normal) اي حالة السكون وسيطرة العقل على القوى البهيميَّة كان دور المخيلة دور المعاون او الخادم الامين يجمع من شتات تأثيراتنا الغابرة ما يقدّمهُ للذهن ليتصرف بهِ على مقتضى حاجتهِ اليهِ. اما حواسّنا الخارجيَّة فهي مباشرة وظائفها دون ان تشكو من الخيال اذًى ولا استغواء. والسبب ان هذه الصور الحسيَّة المنطبعة في أدراج مشاعرنا تكون في هذه الحالة اشدَّ وقعًا في نفوسنا ممَّا يتصوَّرهُ الخيال فيسهل علينا من ثمَّ ان نميّز بين صورة الحاضر الواجلة ابواب حواسّنا وتمثيل الماضي الناشئ بقوَّة مخيلتنا. لكن كثيرًا ما يحدث أن تقوى تلك التمثلات على صور الامور التي عزمنا التروّي فيها فينتج من ذلك بعض الزيغ والعاقة في نظام اعمالنا وذلك ما يدعوهُ الناس سهوًا او شتات فكر وهو اخفُّ كل ظواهر المخيلة الماكسة لترتيب حياتنا ممَّا اوجب لها تسمية «حمقاء الدار» (la folle du logis) امَّا اذا اطلق المرء العنان لسلسلة خيالاتهِ قصدًا حتى ينهمك في بحر خواطرهِ العجاج فيصبح بالحالم اشبه منهُ باليقظان فكانت عندئذٍ حالتهُ الهوَس (rêverie). ومن مفاعيل الخيال ايضاً الغرور او الوهم (l'illusion) وهو ان تغلب تصورات المخيلة على حواسّنا الخارجيَّة لا تامَّاً حتى تُقنعنا بحضور الغائب لكن بحيث انها تخطئنا موقتاً في ادراكنا المحسوسات

مثال ذلك ان ينطق احدٌ امامك بكلمة فتسمع غيرها يربطها بالاولى بعض الشبه وهذا لاشتغالك الحاضر بمدلول الثانية او لأنهُ اثَّر فيك في سالف الأيام تأثيرًا يصير

على كرّ الازمان. فاتضح اذًا ان من خواص الغرور بعض الخلط بين الشعور الواقعي والخيالي بحيث يبرز الخيالي مكررًا بشدة الواقعي ومتانته حتى يوهم صاحبهُ انهُ صورة الواقع. ذكر من هـذا الباب المسيو هنري جولي (١ ان طالبين من طلبة الطب كانا يتشاغلان بتشريح جثة ميت فبينا كان احدهما منغمسًا في لجة الافكار والابحاث اتفق انهُ مدَّ احدى اصابعهِ على لحوم الجثة فانتهز رفيقهُ هـذه الفرصة ليداعبهُ فاجاز ظهر مشرطهِ على اصبعهِ بقوَّة وسرعة فما احسَّ الاول بمسّ المبضع حتى رجع الوراء صارخًا صراخًا ارتعدت لهُ فرائص رصينهِ فسألهُ ما سبب صياحهِ فأجابهُ: « شعرتُ بحدّ الحديد نافذًا عروقي ثمَّ بوجع اليم واصل حتى العظام. . » وما كان ذلك الّا وهمًا بين شعوره الحاضر الغير المؤلم وما قرأهُ او احسَّهُ سابقًا من برد الفولاذ الماضي في الاجسام

غير ان الخيال لا يقف عند هذا الحد من تصرُّفاته الغريبة بل يحدو بالانسان الى مهامه اخرى تجدهُ فيها خائضًا غمرات الضلال يرى وهو يقظان اضغاث احلام يُفتي بصحَّتها. وهذه الحال يسمّيها الافرنج (hallucination) لستُ اجد للتعبير عنها في لغتنا العربيَّة كمثل لفظة الاستغواء. او الهذيان وهي ناجمة عن جيشان مفرط في الدماغ والجهاز العصبي يسبّب هيجانًا عظيمًا في اعمال المخيلة فتحتدّ وتستفزّ حينئذٍ تلك القوَّة (exaltation) وتبرز صورًا لها من مظاهر الحياة ما يفتن العقل ويخاتلهُ حتى ينزّل الرسوم منزلة الحقيقة والاوهام منزلة الواقع من الامور فيرى الانسان والحالة هذه ما ليس امام عينيهِ ويسمع حيث لا صوت يقرع مسامعهُ ويلمس وربَّما كانت يداهُ مقيَّدتين. وان قيل هذا الجنون بعينهِ اجبنا اننا لا نظنُّهُ بعيدًا منهُ في افعالهِ الخارجيَّة الّا ان الجنون عتهٌ واختلال يلازم العليل طويلًا امَّا الاستغواء فموقَّت يذهب عند استكانة الجأش. ومما قيل ايضًا في الفرق بينهما ان للمُغوى سلطة على نفسهِ يمكنهُ بها الارتداد عن غيّهِ متى أراد بعكس المجنون الذي لم يَعُد لهُ سلطان على افعالهِ البتَّة

وهنا لا بدَّ ان ننبه القرَّاء الكرام الى البون العظيم الفاصل بين الاستغواء كما وصفناهُ وما ترويه الاسفار المقدسةُ وسير الابرار من حالات الرؤيا والوحي (النبوة) والانجذاب الروحي فان كل هذه لا تخلو من مُدركٍ حسّي حقٍ صحيح الّا انهُ من طبقة تتعالى عن اطوار الماديَّات يُريها الله لاوليائهِ على طرائق عجيبة امَّا المحسوسات

١) من كتابه المخيلة (l'imagination) ومنهُ اقتبسنا بعض فوائد هذه المجالة .

التي تجري في الاستغواء. فهي كلها وهميَّة مختلفة لا ركن لها في عالم الاكوان فبين الحالتين مناط الثريَّا

ومن مفاعيل الخيال الاحلام التي مرَّ عنها الكلام في المشرق (٣: ٤٤٨) فنكتفي بالاشارة. وربَّما ايضاً ثار في الرقاد ثائر الخيال على نوع فاحش. فيتحوَّل الحلم الى حركات غريبة في الجسم من مشي وغيره (somnambulisme) وهذا باب لا نقرعهُ اليوم خشية الاطالة المستهجنة

٤ في منافع الخيال

اطلعنا القرَّاء على عدة شوائب تشين بعض الاحيان وجه هذه القوَّة الاغرّ وتبخس قليلًا بقدرها الَّا ان لها مزايا فريدة يسرّنا ان نميط عنها اللثام. ومن انفس فوائدها خدمتها المتواصلة للعقل البشري تقوم باعبائهما دون ان يأخذها كلل او تركن ساعةً الى لذة الراحة. والمخيلة معاون امين للذهن لا بل ضروري لا غنى لهُ عنها ما دام الانسان في قيد هذه الثانية مؤلفًا من نفس وجسد. وكما ان منبع معقولاتنا الاول هي الكائنات الخارجيَّة المدركة بواسطة مشاعرنا كذلك لا يتسنى لنا فعل التعقُّل الَّا بشرط ان يسبقهُ ويمهّدهُ عمل خيالي مهما كان ضعيفًا ضئيلًا. هكذا قضت بهِ المراسيم الصمدانيَّة او بالاحرى قل هكذا اقتضتهُ حالة المركَّب البشري. فربَّ سائل يأخذ منهُ العجب فيسأل: وهل انا في حاجة الى المخيلة لاطلاق اعنَّة افكاري فيما هو متنزه عن الجسميات كماهية الباري تعالى وكمالاتهِ الغير المتناهية ثم المواد الفلسفيَّة الصرفة والمسائل الرياضيَّة النظريَّة? اجبتُ نعم ومصداقًا لقولي اشير عليهِ بالفحص المكرَّر المدقّق عن افعاله الباطنة عندما يتفرَّغ لهذه الشواغل السامية ألا يرى انهُ اذا اعمل الفكر في الخالق عزَّ وجل لا بدَّ ان يتصوَّرهُ في هيئة او ان يتمثَّل السماء محلَّ سكناهُ تعالى كما يروق لديهِ او بالاقلّ ان يشاهد بعين مخيَّلتهِ صورة احرف اسم الجلالة مكتوبة او منقوشة على صفحات خياله. امَّا اذا تعمَّق في الرياضيَّات مهما دقَّت وعلت فانَّهُ لا بدَّ لهُ ان يستند الى الاشكال الهندسيَّة او يلوذ بالارقام الحسابيَّة الى غير ذلك من التصاوير المحسوسة. والامتحان الصبور اقوى على اجلاء هذا الامر من كل كلام غيور

وفي هذا المقام يتبادر لي ان احلَّ مشكلًا طالما سمعته منطلقًا على ألسن الخواص والعوام قيل ويُقال يوميًا ان علماء الرياضيَّات قوم حُرموا من المخيلة معظمها فلا يأتون

بتآليف يُشعر بالتصاوير الخياليَّة اللينة . قلتُ هذا زعم حُرم من الصواب جانباً معتبرًا ونفنّده كما يلي : لا نكير ان الرياضيين بسبب انقطاعهم الى المسائل النظريَّة لا يُبرزون من مبتكرات القريحة ما يخطف الابصار ويفتن القلوب كما هو شأن الشعراء ومشاهير ارباب الفنون لكنهم ليسوا لذلك معدومين نصيبهم من الخيال بل اذا تدبّرنا المسألة ألفيناهم حائزين منهُ على سهم اوفر من معظم البشر الّا ان خواص هذه الخياليَّات يغلب عليها الرزانة والحدَّة دون الرونق والظرافة . أتظن مثلًا انَّ الحسابي البارع لا يفتقر الى سرعة ومتانة من التخيّل بالغة للاحاطة بمسألة عدديَّة سودت ارقامها العشرين او الثلاثين صفحة وكذا هلاَّ يلزم معلِّم المساحة قوة تصوُّريَّة عجيبة للاشتمال التام على رسم ملتبك التخطيط مبهم العلائم يلقي الدهشة في عقول العامَّة

لكن حذارِ حذارِ ان تدَّعي مع قوم منافقين ان الخيال (او الدماغ مركزهُ) آلة العقل البشري يُستخرَج منهُ الفكر كما يُستخلص الثلج من المصنع او الماء القطر من الانبيق . فهذا ضلال وخيم نقض دعائمهُ المشرق (١ : ١٠٠٩) في ردّهِ على المقتطف لانها مخلَّة بالمبادئ الصحيحة الراهنة تقود بالمرء توًّا الى مهواة المادّيين بتسويتها بين النفس الانسانيَّة والبهيميَّة . قلنا ان فعل الخيال شرط لازب لعمل البصيرة وهيهات ان نستنتج من هذا ان الخيال آلة العقل في حصر الكلام فمدار المسألة كلهُ على الفرق الجوهري القائم بين الشرط والآلة . نعم كلّ آلة هي من شروط العمل المختصة بهِ لكن هذا لا يُعكس . فلبيان ذلك اورد تشبيهاً يقرِّب الامر للاذهان : كلٌّ يعلم ان العين آلة البصر (organe de la vue) فافترض برهةً انك في سجن مدلهمّ مرتفع الجدران لا يلوح لك من نافذته الوحيدة الّا كبد السماء دون البدائع التي تتسربل الارض بحلاها الّا ان رجلًا حنونًا عزم ان يمتّعك بهذه الرؤية الجميلة فجهَّز مرآة كبيرة ينعكس فيها العالم الخارجي بحيث يتيسّر لك التطلّع فيهِ فما قولك في تلك المرآة أهي اداة البصر الخاصَّة بمعزل عن العين التي طالما اقررتَ لها بهذه الخصلة أم هي مجرد شرط لاستتمام فعل البصر ؟ اخالك لا تغترّ بالظواهر وتثابر على سالف اعتقادك بان الآلة الوحيدة انما هي العين وان كل ما سواها وسائل وشروطٌ مهما كانت لازمة فهكذا العقل البشريّ مدَّة الحياة فانَّهُ متقلّبٌ ضمن سجن الجسد وبموجب هذه الحالة حُتم عليهِ ان لا يتعقَّل شيئاً ممَّا فوقنا او حولنا او دوننا الّا متى بسطت المخيلة صورتهُ امامهُ شأن المرآة الصادقة فعلى هذه

الصورة (phantasme) يشتغل الذهن بقوّته التجريديّة والتعميميّة (abstraction et généralisation) وبذلك يستكمل الافتكار والّا فلا. امّا ما يفوي المادّيين ويطمس على بصائرهم انهم يرون اضطراب العقل متابعًا دائمًا اختلال الدماغ فيحكمون من ذلك بان الدماغ معمل الافكار فلا يأبهون بالخيال الذي يتوسَّط بينهما ويكون هو اول هدف مستهدف لاضطرابات الدماغ فمنهُ ينتقل التشويش الى افعال العقل بمثابة صدًى تنعكس رنّتهُ من غور الى آخر. فكفانا بذلك دليلًا على عدم تشبُّث العقل البشري بالمادّة الهيولية وعلى شرف الحكمة آمتهِ الصادقة

الخطّ العربي

نخبة من كتاب صُبح الاعشى في كتابة الانشاء للقلقشندي

عني بنشرها الاب ل. شيخو اليسوعي (تابع لما سبق ص ٣٢٨)

الفصل السادس

في مطلق الحروف في جميع اللغات

واعلم ان الحروف تختلف باختلاف اللغات بحسب تعدُّد مخارجها فحروف السريانيين والروم والفرس والصقلب والترك من اربعة وعشرين حرفًا الى ستّة وعشرين حرفًا وحروف العبرانيين واليونانيين والقبط الاول والهنود وغيرهم من اثنين وثلثين الى ستّة وثلثين(١. ويوجد في غير العربيَّة من الحروف ما لا يوجد في العربيَّة كما يوجد في العربيَّة ما لا يوجد في غيرها من اللغات ويكثر في الاستعمال فيها ما لا يكثر في غيرها. فالحاء المهملة والظاء المعجمة ممَّا انفردت بها العرب في لغاتها واختصَّت بها دون غيرها من ارباب اللغات. والعين المهملة قليلة في كلام بعض الامم ومفقودة في كلام كثير منهم. وكذلك الصاد والضاد والذال المعجمة ليست في الفارسيَّة والثاء المثلَّثة ليست في الروميَّة ولا في الفارسيَّة والفاء ليست في التركيَّة. قال الشيخ اثير الدين ابو حيان رحمه الله: ولذلك يقولون في فقيه «بقيه» بالباء الموحدة الشربة القويَّة .

---

١) ليس هذا القول سديدًا فان حروف العبرانيين ٢٢ حرفًا وحروف اليونانيين ٢٦.امَّا القبط الأول فكانت حروفهم البسيطة ٢٣ حرفًا.امَّا حروفهم المركَّبة فكثيرة

الفصل السابع

في حروف العربيّة

واعلم انّا لمّا كنّا بحمد الله أمة وسطًا خير أمة أُخرجت للناس وكان خير الامور اوساطها وكانت حروف اللغات ما بين اربعة وعشرين حرفًا الى ستة وثلثين كما تقدم كانت حروف الكلام العربي التي بها رُقم القرآن الكريم ثمانية وعشرين حرفًا في اللفظ متوسّطة بين حروف اللغات وهي ا ب ت ث الى آخره. وتسمّى حروف الهجاء وحروف التهجي. ويسمّيها سيبويه والخليل حروف العربيّة اي حروف اللغة العربية وهي التي يتركّب منها الكلام العربي. وتسمّى ايضًا حروف المعجم امَّا لانها مقطّعة لا تُفهم الّا باضافة بعضها الى بعض وامَّا لان منها ما يُنقط النَّقط المعروف او يُنقط كلها اي يُشكَّل اذ النقط قد يكون بمعناها. وقال بعض اهل اللغة النَّقط بالسواد كمثل التاء عليها نقطتان. ويقال منهُ « اعجمتُ الحروف » ومعناهُ حرف الخط المعجم وبعضهم يجعل المعجم مصدرًا بمعنى الإعجام من « اعجمت الشيء » اذا بيّنتهُ فكانها مبيّنة للكلام وتكون الهمزة في « أعجمت » للازالة اي ازلت عُجمتهُ امَّا بنقطهِ او شكله. قال الشيخ عبد الخالق ابي القسم المصري : « واذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق لن يزيد ذلك على ثمانية وعشرين حرفًا » يريد غير اللام الف في الحروف العربيّة. والقائل بذلك يجعل اللام الف مركّبًا من حرفين فلا يعدُّهُ حرفًا مستقلًّا

قال علماء الحرف: وجُعلت ثمانية وعشرين حرفًا على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين. قالوا : ولمَّا كانت المنازل القمريَّة يظهر منها فوق الارض اربع عشرة منزلة ويغيب تحت الارض اربع عشرة كانت هذه الحروف منهـا ما يظهر مع لام التعريف اربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة وهي: الالف والباء والجيم والحاء والخاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف والميم والهاء والواو والياء المثنّاة تحت. تقول « ألالف والباء والحاء » فتظهر اللام في لفظك وكذلك في البواقي. وما يندغم منها اربعة عشر حرفًا ايضًا بعدد المنازل الغائبة وهي التاء المثنّاة من فوق والثاء المثلثة والدال المهملة والذال المعجمة والراء والزاي والسين المهملة والشين المعجمة والصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة واللام والنون تقول: « التّاء والثّاء والدّال » فيخفى اللام في لفظك وكذلك في البواقي ...

ثمَّ للحروف العربية فروع توجد في اللفظ دون الكتابة مستحسنة ومستقبحة تبلغ بها الحروف العربيَّة سبعة واربعين حرفًا ولا يوجد ذلك في لغة امةٍ من الامم. اضربنا عن ذكرها لعدم تعلُّقها بالخط الذي نحن بصدده وبالله المستعان

الفصل الثامن

في بيان جهة ابتداءات الحروف

واعلم ان اصحاب الاقلام اختلفوا باعتبار مقاصدهم في البداءة بالحروف فمنهم من يبدأ من اليمين الى اليسار كالعرب والعبرانيين والهنود واهل الطبيعة (١ والسريان اخذًا فيه على سير الفلك من المشرق الى المغرب والمشرق عندهم يمين الفلك ويقال لهُ «ماخذ كورى» وقيل لان فيه الاستمداد من الكبد الى القلب. ومنهم من يبدأ من اليسار الى اليمين كالروميَّة واليونانيَّة والقبطيــة وفنٌ من الفارسيَّة اخذًا فيه على سير الكواكب السبعة السيَّارة من المغرب الى المشرق ويقال لهُ «ماجد دورى» وقيل لانهُ ناشئ عن حركة القلب الى الكبد

الفصل التاسع

في كيفية ترتيب الحروف

واعلم ان ترتيب الحروف على ضربين مفرد ومزدوج. وبين اهل الشرق واهل الغرب (٢ في كل من النوعين خلاف الترتيب

امَّا المفرد فاهل الشرق يرتبونهُ علىٰ هذا الترتيب: ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي

وامَّا اهل الغرب فانهم يرتبونهُ على هذا الترتيب: ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ي

وامَّا المزدوج فاهل الشرق يرتّبونهُ على هذا الترتيب: ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ

واهل الغرب يرتّبونهُ على هــذا الترتيب: ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ظغش

١) يريد باهل الطبيعة الصابئين لمبادئهم قوات الطبيعة

٢) اهل الغرب هنا عرب شمالي افريقية

على انهُ قد اختُلف في كلمات ابجد هل لها معنى ام لا وهل يُكره تعلُّمها ام لا واكثر الناس في الشرق والغرب على تعلُّمها . وقد جاء انها كانت تُعلَّم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ ويشهد لذلك قول الاعرابي في ابياتهِ :

اتيتُ مهاجرين فعلّموني ثلاثة اسطر متتابعاتِ
وخطُّوا لي ابا جادٍ وقالوا تعلَّم سعفصاً وقرَيْشاتِ

وقيل ان ابجد وهوز وحطي وكلمن كانت اسماء ملوك مدين وقد تقدم ان الاربعة المذكورة كانت اسماء واضعي الخط العربي على قول . والله اعلم (راجع المشرق ٤ : ٢٧٨)

الفصل العاشر

في كيفيَّة صور الحروف العربيَّة وتداخل اشكالها

قد تقدم ان الحروف العربيَّة على ثماني عشرة صورة وهي : صورة الالف . وصورة الباء والتاء والثاء . وصورة الجيم والحاء والخاء . وصورة الدال والذال . وصورة الراء والزاي . وصورة السين والشين . وصورة الصاد والضاد . وصورة الطاء والظاء . وصورة العين والغين . وصورة الفاء والقاف . وصورة الكاف . وصورة اللام . وصورة الميم . وصورة النون وصورة الهاء . وصورة الواو . وصورة اللام الف . وصورة الياء . وفرقوا بينها بالنقط كما سيأتي . وقصدوا بذلك تقليل الصور للاختصار لان ذلك اخفّ من ان يُجعل لكل حرف صورة فتكثر الصور . ثم ترجع الثماني عشرة صورة بعد ذلك الى خمس صور وهي : الالف والجيم والراء والنون والميم

ففي صورة الالف احدى عشرة صورة : الف قائمة وهي ا . وسبع الفات مبسوطات وهي : ب ت ث ك ل ي فكل هذه على صورة الالف غير ان منها ما تُكرَّر فيه صورة الالف وهي الكاف واللام . والفان مبطوحتان وهي ط ظ . والف معطوفة وهي لا

وفي الجيم سبع صور : جيم مرقَّلة وهي ج ح خ . وجيمان محذوفتان وهما د ذ . وجيمان شاخصتان وهما ع غ

وفي الراء ثلث صور وهي : ر ز و

وفي النون ست صور وهي : ن س ش ص ض ق

وفي الميم صورتان وهما : م ه

الفصل الحادي عشر

في الحث على تحسين الخط

لا خفاء ان حسن الخط من احسن الاوصاف التي يتّصف بها الكاتب وانهُ يرفع قدره عند النـاس ويكون وسيلة الى نجح مقاصده وبلوغ مآربه مع ما ينضمُّ الى ذلك من الفوائد التي لا تكاد تحصى كثرةً. وقد قال امير المؤمنين عليّ كرم الله وجهه: الخطّ الحسن يزيد الحق وضوحاً. وقال بعض العلماء: الخطّ كالروح في الجسد فاذا كان الانسان جسيماً وسيماً حسن الهيئة كان في العيون أعظم وفي النفوس افخم. واذا كان على ضدّ ذلك سئمتهُ النفوس ومجّتهُ القلوب. فكذلك الخطّ اذا كان حسن الوصف مليح الرصف مفتّح العيون املس المتون كثير الائتلاف قليل الاختلاف هشّت اليـه النفوس واشتهتهُ الارواح حتى ان الانسان ليَقرأهُ وان كان فيه كلام دني ومعنى ردي مستزيدًا منهُ ولو كثر من غير سآمة تلحقهُ. واذا كان الخطّ قبيحاً مجّتهُ الافهام ولفظتهُ العيون والافكار وسئم قارئهُ وان كان فيه من الحكمة عجايبها ومن الالفاظ غرايبها. ويقـال ان الخطّ مُوازٍ للقراءة فاجودُ الخطّ أبينُهُ كما ان اجود القراءة أبينُها ولا يخفى ان الخط الحسن هو البيّن الرائق البهج

ثم قد تقدم في الكلام على اصل وضع الخط ان الخط واللفظ يتقاسمان فضيـلة البيان ويشتركان فيها. قال في مواد البيان: ولمّا كان الخطّ قسيماً للفظ في البيان الذي امتنّ الله بتعليمـه على الانسان وجب على الكاتب ان يُعنى بامر الخطّ و يراعي من تجويده وتصحيحه ما يراعيه من تهذيب اللفظ وتنقيحـه ليدلّ على سرعة وسهولة كما يدل اللفظ البليغ البين. لانّ الخطّ وان كان على الاطلاق في المنزلة التي لا تساوَى من الشرف فانما تحصل فضائلهُ للجيد منهُ كما ان المنطق وان كان من الشرف في هذا الحد فانما تحصل فضائلهُ التامّة لمنطق البليغ اللسن دون منطق العيّ الألكن وكذلك سائر الصنائع الفاضلة على الاطلاق انما يحصل فضلها للماهر فيها دون المبتدئ

قال: فينبغي للكاتب ان لا يقدّم على تهذيب خطهِ وتحريرهِ شيئاً من آدابهِ فان جودة الخطّ اول الادوات التي ينتظم بحصولها لهُ اسم الكتابة ويُحكم عليه اذا حازها بانهُ من اهلها. وقد دخل بحسن الخطّ في الصناعة من اذا فُحص عن مقدار معرفته

وجب ان تُنزَّه الكتابة عن نسبتهِ اليها. ويجب مع ذلك ان يراعى تأسيس الخط على الوضع الذي اصطلح عليهِ المجيدون من الكتّاب فقد قسم اهل الصناعة الخط الى قسمين محقَّق ومطلق. فامَّا المحقق فما صحَّت اشكالهُ وحروفهُ على اعتبارها مفردةً. قال في مواد البيان: وهذا القسم في الذي يستعمل في الامور الجسيمة ككتب العهود والاسجالات والتمليكات التي تبقى على الاعقاب والمكاتبات الصادرة عن الملوك الى الملوك الدالة على قدر المكتوب عنهُ والمكتوب اليهِ. وامَّا المطلق فهو الذي تداخلت حروفهُ واتصل بعضها ببعض. قال في مواد البيان: وهو خطٌ مولَّد من المحقق يُستعمل في تنفيذ ما لا يمكن تأخيره من المكاتبات المهمة والامور العامة. وقال: ويجب ان يلزم الطريقة في كل واحد من الخطين ولا يخلط حروف احدهما بحروف الآخر

الفصل الثاني عشر

في الطريق الى تحسين الخط

ويُتوصَّل الى ذلك بامور: الاول معرفة تشكيل الحروف. قال في مواد البيان: وهو الاصل في ادب الخط لانَّ الخط انما يُسمَّى جيدًا اذا حسنت اشكال حروفهِ وانما يسمى رديئًا اذا قبحت اشكال حروفهِ وحسن صور حروف الخط في العين شبيه بحسن مخارج اللفظ العذب. قال: والوجه في تصحيح الحروف ان تبدأ اولًا بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصح صورة كل حرفٍ منها على حيالها. ثم تأخذ في تقويمها مجموعةً مركَّبة وان تبدأ من المركَّب بالثنائي والثلاثي ثم الرباعي ثم الخماسي فان هـذه هي امثلة الاسماء والحروف الاصليَّة. وان يعتمد في التمثيل على توقيف المهرة في الخطوط العارفين باوضاعها ورسومها واستعمال آلاتها فان لكل خط من الخطوط قلمًا من الاقلام يصلح لذلك الخط. وهذه الاقلام المختلفة نظير آلات الصانع المختلفة التي يصنع الصانع بكل آلة منها جزءًا من صناعتهِ لا يصنع بهِ غيرهُ. ولا يعوَّل على كتابة خطٍ من الخطوط بنقل مثالهِ بنفسهِ فان ذلك لا يكفيهِ اذ لو كان ذلك كافيًا لاستُغني من جميع الصنائع عمن توقَّف عليها. على ان كثيرًا من اصحاب الخطوط قد كتبوا طبعًا دون التوقيف من احد على طريقة من طرق المحرِّرين الَّا ان الافضل ان يبنى الخطَّ على اصل يكون لهُ اساسًا فاذا فُصِّلت احوالهُ انكشف فساد كثير من حروفهِ

(الباقي للآتي)

القصب وصناعته في حلب

لحناب الخواجا حبيب يوسف مشحور الحلبي احد ارباب هذا الفنّ

انّ ما ورد في المشرق (٤ : ٤٤١) عن صناعة الحياكة في الزوق وشهرة اصحابها في صنيع الانسجة حدا بنا الى ان نضع نبذةً وجيزة في صناعة أخرى شريفة لها مع النساجة علائق بيّنة ألا وهي صناعة القصب التي لم نجد لها ذكرًا حتى الآن في مجلّاتنا الشرقيّة مع عظم شأنها وجلالة قدرها

اصل صناعة القصب ومقامها

واصل هذه الصنعة من الشرق بلا مراء فانها كانت في غابر القرون زاهيةً زاهرة في انحاء الهند والعجم وما يجاورهما من البلاد وقد دخلت في اصقاعنا الشاميَّة منذ نحو اربعمائة سنة . قيل ان بعض ارباب هذه الصنعة هاجروا من العجم واستوطنوا حلب فاخذها عنهم الحلبيون وتعلّمها اهل مصر والاستانة العليّة ولم يزالوا يتعاطونها حتى الان دون غيرهم . ويؤيد هذا الرأي عن اصلها العجمي ان اكثر الفاظ هذه الصنعة فارسيَّة او تركيَّة . ومما لا شبهة فيه ان الحلبيين برعوا في عمل القصب ونالوا في ذلك قصب السبق وقد اتسع نطاقهُ بينهم حتى بلغ عندهم عدد العملة الذين يشتغلون بهِ نيفًا واربعة آلاف عامل كانوا يرتزقون بهِ بل كان مزاولو هذه الصنعة عراض البطون واسعي الثروة لإقبال الجمهور على شغلهم . امَّا اليوم فقد كسدت سوق هذه الصناعة لتهافت اهل بلادنا على المنسوجات الاوربيَّة والتقليد الانكليزي فنبذوا بضاعة مواطنيهم مع صفاقتها ودقَّة صنعها وبذلوا الدرهم عن يد سخيَّة لاستجلاب البضائع الاجنبيَّة مع ان كثيرًا منها تقليد بحت لاشغال بلادنا بعيد عن جودتها . ولذلك قد قلَّ اليوم عدد عملة القصب في حلب الى اقلّ من الف عامل يكدون ويجدّون وهم لا يكادون يحصلون على بلغة عيشهم

وكانت اعمال القصب في سالف الزمن رائجةً في كل انحاء الشام لاسيا حمص ودمشق ثمَّ في بغداد وازمير وصتز وهي اليوم منحصرة في بغداد وحمص والزوق ودمشق يقدم عليها السيَّاح فيعجبون من هذه المنسوجات المقصَّبة ويشترونها باثمان طيبة . وكذلك

ترى شيوخ العربان وامراء القبائل لا يزالون يلبسون الثياب المقصَّبة كالكفوف والمشالح يتباهون بهـا ويتناخرون وهي في حقيقة الامر تفوق ما سواها من الملابس الفاخرة التي تليق بالسادة والامراء

كيفيَّة شغل القصب

يكون قصب المنسوجات امَّا فضة خالصة وامَّا فضَّـة محلَّاة (ملبَّسة) بالذهب. ولا بدَّ لصنع كليهما من ثلاث صنائع تستلزم بعضها بعضًا بحيث اذا تعطَّلت الواحدة منها توقَّفت البقيَّة. ولوجود هذه الصنائع الثلاث في حلب قوي اهلها على حفظ سرِّها واحكام صنعها. ولولا ذلك لتلاشت وصارت نسيًا منسيًا

والصنعة الاولى التي تتقدم الصناعتَين الاخرَيين هي تمحيص الفضَّة وهي تُعرف في حلب بالروباص. ولاربابها في ذلك حذاقة عجيبة تراهم يبلغون في تنظيف الفضـة وتنقيتها ما لم يبلغـهُ الاوربيون مع كثرة ادواتهم. واذا اتتهم سبيكة فضة من اوربة مهما كانت خالصةً من الخَبَث لا يرونهـا صالحة لشغلهم الَّا بان يعيدوا تمحيصها على مألوف عادتهم: ولهم في ذلك طريقة تفرَّدوا فيها وهي انهم يتَّخذون بوتقةً (او جورة في الارض) مصنوعة من مادَّة يدعونها القُصرمل وهو الرماد الباقي من زبل الدواب الخالص بعد ان يُحرق في الحمامات (١). فيضعون فيها الفضة ويوقدون فوقها الحطب فاذا ذابت الفضة مزجوها بكمّيَّة معلومة من الرصاص وهـذا الرصاص يرسب في البوتقة مع الموادّ الغريبة والمعادن الممزوجة عند تمام تصفية الفضة. ولذلك علامات يعرفونها وفي معرفتها سرّ صناعتهم

ولهؤلاء الحاصين حذقٌ في تلبيس الفضَّـة ذهبًا اذا ما ارادوا ان يتخذوا القصب المذهب. فهم يعمدون الى سبائك الذهب النـاصع اللون الحسن المنظر ولذلك كانوا يفضلون ذهب البندقيَّـة على غيره امَّا اليوم فيتَّخذون النقود المسكوبيَّة لِنُدرة الذهب البندقي. فيطرقون هذه السبائك ويرققونهـا حتى تصير ارقّ من ورق السيكارة بطول

---

١) ولهذا الرماد تأثير عظيم في تنظيف الفضَّة فلا بدَّ ان يكون خالصًا من كلّ مادَّة غريبة. بل لا يصلح هذا الزبل في وقت الربيع لما تأكلهُ الدواب آنئذ من الحشيش. واذا كان الرماد غير صرف تقطَّعت اسلاك الفضَّـة وصعب ترقيقها. ولا يصلح هذا الرماد للعمل اذا مرَّ عليهِ خمسة عشر يومًا

وعرض معلومين(١ ثمَّ يأخذون صلائج الفضة التي تكون على طول ثلاثة ارباع الذراع فأزيد وهي مستديرة الشكل يبلغ ثخنها قيراطين فيجعلون اوراق الذهب على هذه السبائك الفضيَّة ويصقلونها صقلًا محكمًا بحيث يلتصق بالفضَّة ويصبحان كمعدن واحد ومهما رُقِّقت اسلاك الفضة يبقى عليها الذهب ولا يزال لونهُ الاصفر ظاهرًا بعد ان يصير قصبًا ويُنسج بالنول ويبقى نسيجهُ بقاء الدهر حتى لو اراد احد ان يستخلص الذهب من هذا القصب بعد خمسين سنة لأمكنهُ ذلك

والسبائك بعد تمحيصها سواء أُلبست بالذهب او لم تُلبَس تُمدَّد بالتدريج الى ان تُصبح برفع اسلاك التلغراف. ويتَّخذون لذلك صفيحة من الفولاذ يثقبونها بثقوب عديدة مختلفة الكبر فيدخلون هذه السبائك في اكبر الثقوب ويسحبونها حتى ترتفع. ثمَّ يدخلونها في ثقب ثانٍ اصغر من الاول. وهكذا بالتدريج الى ان تصير السبيكة كسلك التلغراف كما سبق. والفضة التي تُصرف في كل سنة لصناعة القصب تبلغ نحو قنطارين

(الصنعة الثانية) وهي صنعة الأَلْتنجي. والالتنجيّ بالتركيَّة صاحب الذهب ومن هذا الاسم يُستدلّ على انَّ القصب كان سابقًا كلهُ ملبَّسًا بالذهب. واستعمال قصب الفضَّة حديث العهد لا نكاد نجد لهُ اثرًا في المنسوجات التي حيكت قبل مئة سنة كما ترى في الحلل الكهنوتيَّة وغيرها. اما الشغل المختصّ بالالتنجي فهو ترفيع الاسلاك فانهُ يستلمها من الخاص بغلظ الاسلاك التلغرافيَّة وينبغي عليه ان يرفعها الى ان تصير في دقَّة الشعر بل ارفع منهُ. واذا بدأ في الشغل اجاز السلك في ثقب محدَّد فيقشط منهُ نحو خُمسهِ ليزيل بذلك رائحة الرصاص الذي دخل في تنظيفه كما سبق. والرائحة المذكورة تضرّ بهِ ما لم تُنزع عنهُ. ثمَّ يعمد الى سيف مُجوهر بجوهر الضبَّان (راجع المشرق ٣: ٥٨٠) ذي ثقوب متتابعة اصغر فاصغر فيسحب منها السلك بالتدريج الى ان يبلغ الدرهم الواحد طول ثمانمائة ذراع برفع متساوٍ. وللثقوب مقاييس غاية في الضبط لا يصيبها خلل الَّا تلافوهُ. امَّا اذا سُحب السلك فلا يزال يتمدَّد دون ان ينقطع اللهم الَّا نادرًا. واذا كثر تقطيعهُ عرفوا بان الفضَّة لم تُمحص جيدًا واعادوها الى صاحب الرواص على حسابهِ. ولصنعة الألتنجي اسرار يضنُّون بها لئلا تشيع فيخسروا ارباحها وهم يتوارثونها ابًا عن

١) وكلُّ مئة درهم تلبَّس بنصف درهم ذهبًا الى درهمين حسب طلب اصحابها

جدّ فيتلقّنون اعمالها. ومعلمو هذه الصنعة لا يتجاوزون اليوم ٢٥ معلماً ومع قلّة عددهم لا يزيد دخلهم اليومي على العشرين غرشاً

اما (الصنعة الثالثة) بعد تمحيص الفضّة وترفيعها فهي صنعة القصب وبها تمام هذا الفنّ الجميل. وعملهُ قائم بثلاثة امور صبغ الحرير ثم بسط الفضة ثم لفّ الفضة على الحرير

فالحرير الذي يستعمل في شغل القصب يجب اولًا قصره وتبييضهُ بالصابون ثم يُصبغ الواناً حسب انواع القصب التي تربي على الثلاثين نوعاً والمعلم هو الذي يتفنن في هذه الاصباغ وتركيبها مع ما يلائمها من الفضة. والصباغ الموافق للقصب لا يكون الّا صباغ الزعفران وكانوا من قبل يتخذون لهذه الغاية الزعفران العجمي او الاناضولي ثم استبدلوهُ منذ عهد قريب بزعفران اوربي انجس ثمناً وانصع لوناً

اما بسط الفضة فيحصل عليه بان تُضغط اسلاكها فتُبسط وتصير لامعةً. وهم يتخذون لذلك بكرتين من الفولاذ الجيد (الصفَّى) يدعونهما جلخاً (ويقال چرخ. والچرخ بالتركيَّة الدولاب) تكون الواحدة اكبر من الاخرى وهذه البكرات يوجد منها اصناف كثيرة متباينة بالكبر والماهم كانوا يستحضرونها سابقاً من البندقيَّة لانهم الى هذا اليوم ينسبون الجيد منها الى تلك البلدة وكانت صغيرةً وهي اليوم تُستحضر من بلاد أُخر. وهذه البكرات مع صلابتها سريعة العطب تتلف لاسباب طفيفة كوخم الذباب وعرق الانسان وما اشبه ذلك واذا تلفت فلا سبيل لاصلاحها ويسقط ثمنها من الخمسين ليرةً الى بضعة قروش ولا نفع منها. ولذلك ترى صاحبها لا يذّخر وسعاً في صيانتها وتنظيفها بقطعة من الكتّان الخشن واذا فرغ من الشغل يقيها بقماش مشبع بشمع العسل. واذا اهملها مدة بدون الشغل عطبت ما لم يلبسها مشمَّعاً سميكاً ويمسحها بالكتّان من وقت الى آخر وهي مع ذلك في صلابة لا تعمل فيها المبارد ويكون الجلخ مصقولًا كالمرآة بتحديب قليل

اما كيفيَّة العمل بهاتين البكرتين فتكون بتركيب الصغرى فوق الكبرى بقالب مخصوص لذلك وبين هاتين البكرتين يُدخل سلك الفضة وهو مستدير فينضغط وينبسط وبانبساطهِ يلمع. وفي بسطهِ وتلميعهِ دقَّة الصنعة لانهُ اذا خرج على استدارتهِ ذهبت منهُ الفائدة ولا بدّ من تمحيصهِ مرَّةً ثانية. ولكي تزيد سهولة دوران الجلخ يركّبون على البكرة

التحتانية اطارًا من خشب ذا اربع قطع من حديد يُعلّق في اطرافها اثقال من رصاص يدعونها حذّافات. ولمّا كانت اسلاك الفضة تتباين عن بعضها برفعها جعلوا للجلخ خشبة معلّقة بهِ بحبال على شبه القبّان ويضعون على هذه الخشبة الثقل اللازم لبسط الفضّة فتكبس البكرة العليا على سلك الفضّة وتبسطهُ. واذا خرج من الجانب الآخر امسكهُ الصانع باصبعهِ وضغطهُ قليلًا فيخرج مرفرفًا وبترفرفهِ يلتفّ على بكرة معدَّة لهُ التفافًا محكمًا. وقد كان الصانع من ذي قبل يقاسي عذابًا كليًّا في هذا اللفّ لسبب عرق اصابعهِ في الصيف وبرودتها في الشتاء. فكان البرد يجمّد اصابعهُ فلا يستطيع ضغط السلك. وقد وفّقنا الله الى اختراع آلة نتدارك بها هذا الخلل فلا يحتاج الصانع الى ان يمسّ السلك باصابعهِ. ومن هذه الآلة في حلب نحو عشرين جلخًا وكلٌّ يبسط من الفضّة ما يكفي لخمسة دواليب (١

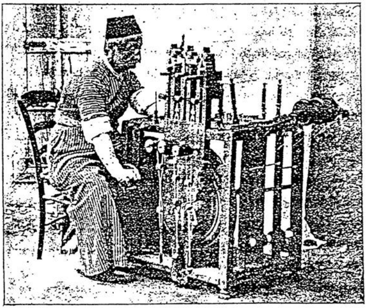
واعلم انَّ قوام صنعة القصب يتمُّ بلفّ الفضّة على الحرير. واداتهُ هي الدولاب يدور في جهاز اشبه بصندوق ذي اربع قوائم في اطرافهِ مع لوحتين عليا وسفلى يدعونهما غطاء وارضًا. وضمنهُ طارتان من خشب مساحة الكبرى اربعة وعشرون قيراطًا والصغرى ستَّة عشر. والحركة تتجاوز من الصغرى الى الكبرى بواسطة وتر. وللطارتين اربع قوائم متقابلة الواحدة منها اعلى من وجه الدولاب يركّب عليها ثلاث قطع من الفولاذ تسمَّى شكوكًا (مفردها شكّ) وهي مثقوبة فيُدخل الحرير بهذه الثقوب ويُجعل في الشكّ بكرةٌ صغيرة عليها الفضّة المبسَّطة فاذا دارت الطارة الصغرى

---

١) واملّ صنعة القصب وُجدت بعد صنعتي تمحيص الفضّة وتلبيسها بالذهب. وممَّا يستدلّ بهِ على ذلك وجود صنف من الفضّة الملبَّسة بالذهب كان يرقمها الالتونجي فتدعى صرما ثم كان يبسطها فتُعرف باسم تيل. وكان يؤخذ منها كميَّة وافرة الى الحجاز والعجم وغيرهما لتطريز الاقمشة. وكان الصرما تطرَّق سابقًا بالمطارق بدلاً من بسطها بالجلخ. ومن امثال العامَّة اليوم «فلان عندهُ دقّ الصرما» اشارةً الى العمل المتعب. وكان عامل الصرما يُعرف بالصرمجي او الصرماكاش. فلمَّا وُضع بعدئذٍ فنّ القصب بقي اسم الصرمجي على اصحاب هذه الصناعة الجديدة

ثم قلنا انَّهُ لا بدَّ لصنعة القصب من الجلوخ لبسط الفضّة واستوائها. فلو كانت هذه الجلوخ موجودة سابقًا لكان اصحاب الصرما استبدلوا طرق الفضّة ببسطها واقتصدوا من التعب والكلف والوقت شيئًا كثيرًا لان درهمًا من الفضّة طولهُ عشرون ذراعًا يُبسَط بعشر دورات من الجلخ لا تستغرق الّا نصف دقيقة امَّا طرقها فلا يتمُّ باقلّ من ربع الساعة مع خلل في التساوي المنتظم

أدارت الكبرى والكبرى تُدير الشكوك باوتار من الحرير فتلتف الفضة على الحرير الخارج من ثقب الشك . وينتهي من ثمَّ الى دواليب مخصوصة تجرها الاوتار وياتفّ على بكرات من الخشب مجهزة لهذه الغاية . فعلى الطارة الصغرى ثلاثة اوتار للفّ القصب وعلى الكبرى ثلاثة اوتار للشكوك وثلاثة أُخر لسحب الحرير بعد التفاف الفضة عليه . ويكفي للدولاب عامل واحد



صورة دولاب القصب

وصنعة القصب كانت محصورة كما قلنا سابقًا في البلاد المحروسة في حلب والاستانة العليّة ومصر وقد بطل من الاخيرتين منذ عهد قريب . اما اوربّة فان معامل قصبها تختلف عن قصبنا الشرقي والذي نعرفهُ منهُ اليوم لا يشبه شغلنا

ويوجد في زمننا نوع من القصب يدعى اللاهي نسبةً الى اللاه ولا نعلم أيكون اصلهُ من بلادنا ام لا . اما البندقيَّة فكان لها سابقًا شهرة في القصب ولعلَّ اهل الاستانة

اخذوا صنعة القصب عن عملة البندقيّة ثمّ انتقلت من الاستانة الى حلب ومهر فيها الحلبيون. وقد اشتهر منهم قوم نخصّ منهم بالذكر السادات بني الشريجي من افاضل المسلمين وعائلات الخواجات عرقتنجي وغزالة وخوكاز وقتال ومشحور وغيرهم من نصارى الشهباء.

وكان اتّسع هذا الفن في حلب اتساعًا عجيبًا وكان ينسج القصب ايضًا في معامل عديدة حتى انّ عدد الانوال للمنسوجات المقصّبة كان بالغًا قبل خمسين سنة نيفًا والفي نول. واليوم قد بطل نسيج القصب حتى لم يبقَ ولا نول واحد فتعطّل من جرّاء ذلك نحو خمسة آلاف عامل

وفي النهاية لا نقدر الّا نتأسّف على ضياع صنائعنا الشرقيّة متمنين من اصحاب الامر ان يعيروها نظرًا شافقًا وكذلك نطلب الى ذوي الثروة ان يصرفوا همتهم العليا الى هذه الفنون التي يكسبهم احياؤها اسمًا طيّبًا ويفتح لمواطنيهم ابوابًا واسعة للرزق فضلًا عمّا يرجون منهم من المال الطائل لو ساعدوا اصحابها في اعمالهم الخطيرة. ألهم الله اهل الخير ما فيه شرف البلاد ونفع العباد فهو السميع المجيب

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وبينما راحيل تتفوّه بهذه العبارات كان بصرها منخفضًا فوقع على يديها المثقلتين بالاسورة الذهبيّة فاحمرّت وجنتاها لاول مرّة خجلًا من هذا الاسراف الذي وجدتهُ خاليًا من كل فائدة فاستهزأت به مزدرية وقائلةً: «ماذا عسى ان تنفعني هذه الحلقات المدنيّة المطوّقة لمعصمي»

ومن الغريب ان الشفقة التي امتزجت بنفسها لم تقتصر على توسيع دائرة عواطفها بل انها اعلت ايضًا درجة فهمها وذكائها واطلعتها على كثير من الامور المزعجة والمناقضات العديدة التي لم تكن لتتنبه اليها من قبل رغمًا عن تأدبها بكثير من المعارف

والعلوم فادركت اخيرًا ان تلك الحلى الحالية من النفع تستطيع ان تخفف وطأة الحاجة على عدد من البائسين الفقراء

وقد افادها هـذا الادراك فائدة عظيمة لان الحميَّة التي كانت كامنةً في نفسها اخذت تزيد وتتقوَّى شيئًا بعد شيء. حتى رفعتها فوق درجة المرأة الاعتيادية التي تكون في غالب الاحيان أُلعوبة بين ايدي رياح الفخفخة ووساوس القلب وما لبثت ان شعرت بانها صارت اعظم حريَّةً واشدّ انعتاقًا من اسار الأَثرة واباطيل المعيشة الاجتماعيَّة فاخذت تنزع أسورتها واحدًا بعد واحد وتضغط عليهـا باصابعها اللطيفة كانها تريد ان تسحقها سحقًا

وكانت قد عزمت ان تضحيها في سبيل الفقراء وتخصص حياتها لمعونتهم وسعادتهم آملةً ان تجد علاجًا لدائها في القرب منهم والعناية بهم فتنسى اذ ذاك اوجاعها ولا تعود تفتكر الَّا باوجاعهم. ثم غاصت متأملةً في النهج الجديد الذي كانت ترجو لدى وصولها الى غايته ان تنال فرجًا وخلاصًا. فاكسبها هذا التـأمل قوة ونشاطًا فوقفت وهتفت قائلةً: «اشعر بان قوَّة غير منظورة تشددني واحسُّ بان صدري ينشرح وقلبي يبتهج ومذ عرفتُ الشفقة سرى النسيان الى نفسي» فيا لعظم انتصارها ولو انهُ جرى في هدوء وسكينة

وكانت راحيل الشقيَّة تظنّ كل الظن انها ادركت الانتصار ولكن سنرى في ما يلي من اخبارها ان الوهم خدعها. على ان الوهم نفسهُ كان جميلًا لانهُ اعرب عن نفس جايلة واخلاق كريمة

ولنعد الآن الى اخبار جوسلين فنقول انهُ كان قد عزم على ان يغتنم فرصة ارتباك المقدم رزق الله في الحرب حتى يسعى بلا معارض في ادراك مآربهِ السافلة وثاراتهِ الدنيئة

والظاهر ان إبعاد الاب يوحنا والتشنيع عليه والسعي في تحقيرهِ تجاه الرأي العام لم يشفِ لهُ غليلًا فعمد على ان يضيف الى هذا الاثم جريمة اعظم. وبما ان وجود دير حصن سليمان في جوارهِ كان يزعجهُ ويُعنتهُ ويقف في طريق مقاصدهِ رأى انهُ اذا فرَّق رهبانه خرَّبهُ يتهيأ لهُ بسهولة ان يضع يدهُ على الاملاك الباقيـة لهُ وهكذا يزيل كل حجَّة لمقدَّم رزق الله تسوّغ لهُ التداخل في شؤون جبل اللكام

لكن لمَّا كان لؤمهُ وخسَّتهُ لا يقلان عمَّا طُبع عليهِ من القسوة والطمع لم يشأ ان يتداخل مباشرةً في هذا العمل الذي ينقض به اثرًا عظيمًا من آثار الاقدمين تؤاخذهُ عليهِ القرون الآتية بل احبَّ ان يتولى ادارتهُ من بعيد بحيث يدرك منهُ الوطر دون ان يتحمَّل في الظاهر تبعتهُ لانهُ اذا انقلبت دولة الحظ وناقشهُ المقدَّم رزق الله حسابًا على هدم الدير يكون لديهِ من يلقي عليهِ مسؤوليَّة العمل. وبناء عليهِ فقد خاطب في الامر نصيريَّة عين الشمس فردًّ هؤلاء طلبهُ قائلين انهم يعظمون القديس جرجس ويجلونهُ كثيرًا كما انهم اكرامًا لتذكار الاب يوحنا لا يقتصرون على عدم التعرُّض بسوء لرهبان حصن سليمان بل انهم لا يطيقون اصلاً مسَّ شعرة من رؤوسهم

فعند هــذا الجواب الصريح بعث برجالهِ الى الاسماعيليَّة المقيمين في مصياد لعلَّهُ يظفر منهم بطائل ولكنهُ لم يصب مرامًا لان اميرهم اجابهُ قائلًا انهُ لم ينسَ احسان الاب يوحنا اليهِ لمَّا عالج ولدهُ وشفاه من مرض عضال ولهذا فهو يضع ذلك الرجل البار تحت كنف حمايتهِ الخصوصيَّة واذا كان يحمل سيفًا فانهُ يسلُّهُ على المجرمين واهل السوء لا على رهبان لا يأتون غير الخير والمبرَّات

فلما قنط جوسلين من النصيريَّة والاسماعيليَّة رأى انهُ لم يبقَ من يعينهُ على الوصول الى مرامهِ الخبيث سوى بعض شذاذ من البدو الضاربين في البــلاد فضمَّ اليهم بعض مؤتمنيهِ وسيَّرهم الى الدير

وفي ذات مساء بعــد ان اغلق الرهبان بوَّابة الدير وصل البدو الى حصن سليمان يقودهم رجال جوسلين فكسروا البوَّابة بضرب الفؤوس وانتشروا في جوّ الدير آمرين الرهبان بالرحيل والتفرُّق ثم شبوا النار في جهاتهِ الاربع. على ان الجدران الضخمة التي كانت من بناء الرومانيين قويت على معاندة النار ولكنَّها التهمت اخشاب الدرابزين او الايكونوستاس الموجود في الكنيسة وذهبت بالصور الثمينة التي كانت معلَّقةً فيها. وجدَّ رجال جوسلين في حريق المكتبة خصوصًا لانها كانت تتضمن سجلات الدير وكان جوسلين يظن ان حريق سجلات الدير يزيل كل حجة في المستقبل تبيّن اغتصابهُ لاملاك الدير الحكي عنهُ. وكان في جملة ما دمرهُ لسان اللهيب عدد من الكتب التي ما زال اهل العلم حتى اليوم ينديون فقدها

وكان الاب يوحنا في مدَّة رئاستهِ قد سعى كل السعي في جمع كل الكتب القديمة

التي تتكلَّم عن تاريخ لبنان غير مدَّخر لادراك بغيتهِ لا تعباً ولا فضةً ومن اجل هذه الغاية كان قد تعرَّف الى اخصّ العلماء المسيحيين في دمشق الشام وانطاكية وحلب وطرابلس وكلَّفهم بان يرشدوهُ الى الكتب الخطّيَّة الكبيرة القيمة . وكان اذا مسَّت الحاجة لا يتأخر عن مباشرة الاسفار الطويلة بنفسهِ للاطلاع على نفائس التآليف . ومن جملة اسفارهِ للغاية المذكورة سفرهُ الى دير صيدنايا حيث فحص بذاتهِ ما كان في مكتبة الدير المرقوم من الكتب السريانية النادرة المثال (١ وقد شخص ايضاً الى غيرهِ من الاديار الملكيَّة التي كانت في ذاك الوقت تُعنى بدرس السريانيَّة واتقانها (٢ . وكان اذا لم يستطع مشترى الكتب بالدراهم يقبل بنفسهِ على نساختها او يكلّف غيرهُ بذلك . وهكذا صرف مدة طويلة في دير القديس جرجس الحميرا للملكيَّة وهو على مقربة من حصن الاكراد . وكذلك في دير البلمند ودير كفتون وغيرهِ من اديار الملكيَّة في لبنان وسوريَّة

ولم يذهل ايضاً زيارة المكاتب اللبنانيَّة والوقوف على ما فيها من كنوز الادب التي كانت كثيرة بذاك العصر في الاديار المارونية مثل دير القديس يوحنا مارون في كفرحي ودير السيدة في يانوح ودير السيدة في ميفوق ودير القديس قبريانوس في كفيفان ودير مُرت مورا في اهدن وغيرها من الاديار

وقد سبق القول انهُ كان اذا فرغ من صلواتهِ الطويلة واهتماماتهِ باسعاف الفقراء والمنكوبين ينصب على تكثير نسخ المخطوطات التي جمعها في مكتبة الدير . وكان يقول ان اول واجب على الراهب هو الصلاة ومناجاة الخالق وافضل الاشغال لهُ من بعدها ان يسعى في نجاة الكتُب المكرَّمة الباقية كشهود عدل على ماجريات الزمان الماضي من التلف والنسيان

ومن اقوالهِ ايضاً: «يجب علينا ان نقتدي باخواننا الرهبان في المغرب فان هؤلاء بعد ان يتمّموا تلاوة الفرض الالهي يُشغلون كل ما تبقَّى لهم من اوقات الفراغ بنسخ المخطوطات القديمة . وسوف يأتي يوم يُحمد فيهِ تذكارهم ويعترف الناس انهُ لولا جدّهم واجتهادهم لما اتصل الينا شيءٌ من كلّ هذه الكنوز الادبيَّة . وبما ان الناس يتهموننا باننا نصرف الاوقات باطلاً ومن غير فائدة فلنثبت لهم ان تهمتهم عارية عن الصحة»

١) المشرق ٣ :٥٨٦ ٢) المشرق ١ :١٥ و ٦١

وبهذه الوسيلة كان هذا الرجل البار قد اوصل مجموعة المخطوطات التي حشدها في مكتبة الدير الى درجة عالية جدًا

وكان معظم هذه المخطوطات باللغة السريانية ولم تكن في الشرق مكتبة تفوقها سوى مكتبة طورسينا المشهورة بوفرة المخطوطات (١ ومكتبة القبر المقدس في القدس الشريف ومكتبة دير النطرون في القطر المصري (٢ وغيرهُ من الاديار في الرها (اورفا) وماردين وما بين النهرين

وكان الاب يوحنا خلا اهتمامه بنسخ الكتاب العربي لقيس الماروني (٣ الذي كان قد شرع في نسخهِ قبل سفره الى بشراي يُعنى بنوع خاص بمجموعة كل اعمال القديس يوحنا مارون (٤ التي من اجلها قلّب كلّ مكاتب لبنان وبتاريخ آخر سرياني مجهول المؤلف غير انهُ يُعد اقدم اثر تاريخي لكاتب ماروني (٥

فجميع هذه الكنوز الادبية وغيرها مما لو بقي محفوظًا لادّى الى حلّ كثير من مشاكل التاريخ وايضاح مشيئاته ذهبت فريسة النار التي شبّها هناك رجال جوسلين

وفي مساء النهار سقط عقد الكنيسة وكان لسقوطهِ ضجّة عظيمة هائلة. على ان النار ما برحت كامنة بين الانقاض التي كان الدخان يتصاعد من خلالها وما مضى غير قليل من الزمان حتى لم يبقَ من تلك البناية العظيمة غير جدران مسودّة متشققة مع بعض العمد رافعةً رؤوسها الى السماء بهيئة حزينة في وسط الخراب

على ان هذه الجريمة التي لا يفي الوصف ببيان شناعتها لم تلبث ان استنزلت على هامة جوسلين العقوبة التي استوجبها خبثهُ

٧

نحن الان في بشراي في صباح يوم احد. الاجراس كلها تدق في جميع الكنائس واسقف البلدة يقوم بالذبيحة الالهية في مار سابا الكنيسة الكبرى بمعاونة عدد من رجال الاكليروس

وكان المقدَّم رزق الله قد عاد من الحرب رابحًا غانمًا فاتى يشكر الله بنوع احتفالي

---

١) ميس لويس: مخطوطات سريانية طور سينا

٢) راجع مقالتنا في مجلة الابحاث ٣) راجع المشرق ٣: ٢٦٥، ٢٥٦

٤) نو: تآليف مارونية ٥) المشرق ٣: ٤٥١

على ما رزقهُ من النصر . وكان شعبهُ محيطاً بهِ وجميعهم يشكرون الباري عزَّ جلالهُ لابعاده جائحة الحرب عنهم واعادتهِ اليهم اميرهم العزيز الذي يحبونهُ محبة اب

وكان فرحهم وابتهاجهم في محلّهِ لان الامير رزق الله كان قد قاتل ثلاثة عناصر تجمعت عليهِ اعني عرب البقاع والشيعيين والنصيريَّة . ولا يخفى ان الشيعيين بعد ان طُردوا من المدن الساحلية وخصوصاً من طرابلس التي كانوا فيها من قبل عدداً غفيراً (١ اخذوا ينتشرون في الجبل ولاسيما في الكورة وبلاد البترون (٢ . واما النصيريَّة فكانوا في الماضي قد حلوا في بعض جهات لبنان مثل جبل عكّار والضنيَّة (٣ وحتى القرن الثالث عشر كان الجرد وكسروان اخصَّ مقاماتهم لا يشاركهم فيهما احد (٤ ومن هناك كانوا يمدُّون يد الاسعاف الى اخوانهم الساكنين في وادي التيم ومرج عيون (٥

(ستأتي البقيَّة)

مطبوعات شرقية جديدة

مفتاح المحادثة في اللغتين العربية والبرازيلية

لحبيب يوسف لطفي . طُبع في بيروت في مطبعة الفوائد سنة ١٩٠١ ص ١٢٨

انَّ مهاجرة السوريين الى اميركة الجنوبية استدعت جناب الاديب حبيب يوسف لطفي الى وضع هذا المختصر المفيد جمع فيهِ ما يحتاج اليهِ المهاجر الوطني من المفردات وتصريف الضمائر والافعال في اللغتين العربية والبرتوغاليَّة . واضاف الى ذلك معجماً صغيراً مرتباً على حروف المعجم ثم جملاً متفرّقة ومحاورات مختلفة . وممَّا يزيد هذا التأليف نفعاً ان اللفظ الاعجميَّ دُوّن في اصلهِ وفي الحرف العربي معاً . ويُطلب الكتاب من مؤلّفهِ وفي مطبعة الفوائد الخاصَّة بجناب صاحب جريدة الاحوال

سياحة في غربي اوربا

بقلم نسيم خلاط

طُبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠١ ص ١٧٠

وددنا لو سمحت لنا كثرة الموادّ التي تضيق لها صفحات المشرق مع رحبها بان

---

١) سفرنامه لناصر خسرو ٢) اخبار الاعيان ١٦٧

٣) شمس الدين الدمشقي ٤) ابو الفداء ٥) حيث بقيت بعض قرى للنصيرية

نصف لقرّائنا هذا الكتاب الجديد وصفاً مستوفياً. فان صاحبهُ جمع فيهِ من الاخبار البهجة والاوصاف الدقيقة ما ترتاح لهُ النفوس وتأنس الى مطالعتهِ الادباء مع سلاسة في التعبير وتفنن في الرواية. ومن الفصول التي سُررنا بتسريح النظر في مطاويها وصف باريس ومعرضها (ص ١٦ — ٣٠) وفرسايل وطُرفها (ص ٣٥) وبعض آثار لندن ومتاحفها (ص ٥٦ — ٧٠) ووصف معمل الصابون في صُن ليت (ص ٨٥) ومشاهد سويسرة (ص ٩٧ — ١٠٠) ومحاسن ايطالية وخصوصاً رومة ونابولي وذكر زيارتهِ الى البطريرك السكوني في الاستانة حيث دافع المؤلف عن حقوق الكنيسة الانطاكية (ص ١٦٠). ومما نثني فيهِ على المؤلف قولهُ عن اصحاب الثورة في المالك الاوربية (ص ١٣٣) وتعجّبهُ من تلك الدول التي « تسمح بسكنى العدميين القتلة بين ظهرانيهم قائمة براقبتهم عن بُعدٍ كأنَّ ضربها على ايديهم واستئصالها شأفتهم وصمة على تمدُّنهم » وهو نعم القول يشبهُ ما كتب المؤلف عن استقباحهِ لمادة البراز الهمجيَّة في اوربَّة (ص ١٣٣)

فما تقدَّم يبيّن للقراء اننا نعرف قدر الكتاب ومقام صاحبهِ. على انَّ الانصاف يحملنا ايضاً على بيان بعض معايب هذا التأليف. اولها انَّ المؤلف لسرعة تنقّلهِ من بلدةٍ الى اخرى لم يتحقق اموراً كثيرة وَهِمَ في وصفها بل في كتابة اعلامها. فترى ما هي مثلاً « كنيسة سيدة فلوفيه » التي زارها في ليون (ص ١٥). فانَّ اسم « فورڤيار » (Fourvières) اشهر من نار على علم. وما هو « مرسح الامبراطور زنّا » في رومية العظمى (ص ١٤٤) فمن هو هذا « الامبراطور زنّا » ؟ ألعلهُ يريد « زِنُّا » ؟ وماذا يعني (ص ٢٥) بقولهِ « كلاني » ونظنهُ يشير الى متحف كلوني (Cluny) الشهير. وعجلة المؤلف في التنقُّل اسقطتهُ في اغلاط افظع من هذه كبعض احكام غير صوابيَّة حكم بها على الفرنساويين والانكليز والايطاليين ولعلهُ وجد في البعض منهم ما لم يرضَ بهِ فعمَّم حكمهُ ونسب هذه المعايب الى كلّ الامَّة فاننا نحن ايضاً سكنَّا زمناً طويلاً في باريس ولندرة وتجوَّلنا في ايطالية وغيرها فلم نرَ الكاتب صادقاً حيث قال (ص ٣٠): « ان اهل باريس جميعاً رجالاً ونساء دائبين (كذا) على كسب الدراهم كيفما اتفق كسبها سواء كان باللطف او بالقحة » وكذلك لم نعهد (ص ٨٠) « ان من شأن الامَّة الانكليزيَّة الاتباع والاقتداء ثم الاتقان لا السبق والاستنباط » وهو حكم جائر تنقضهُ

العقول النيّرة الواقفة على تاريخ الاختراعات البشريَّة فانَّ لانكلترَّة فيها قسماً وافراً. وقد افرط ايضاً جناب المؤلف في قولهِ (ص ٥٩) عن انفة الانكليز وتيههم. فانَّا بعكس ما قال المؤلف قد وجدنا في اكثرهم من الانس واللطف مدَّة اربع سنوات عشنا بينهم ما لم نجدهُ في غيرهم. وكذا ايضاً لا نسلّم للمؤلف قولهُ عن كنائس رومية (ص١١٧) انَّ اكثر مشيَّداتها قد تداعت. ونحن نعلم بخلاف الامر انَّ الكنائس القديمة تُرمَّم في كل سنة وتُبنى كنائس محكمة الاتقان واسعة البنيان. وكذلك تعجَّبنا من قولهِ (ص١٤٠) عن كنيسة اليسوعيَّة في رومية انها ُعطِل من كل اثر تاريخي فضلاً عن ان لليسوعيين كنائس كثيرة بديعة في رومية فلم يذكر اي كنيسة منها اراد

وما زادنا عجباً انَّ المؤلف في مواضع شتى ارخى العنان لاوهامهِ فكتب (ص ٤٨) عن الاكليروس الافرنسي انهُ « يجاهر على ما في اكثر انجتهِ من الفضل والعلم بعجائب ومعجزات بعض قبور الاولياء والنساك ويحضُّ المؤمنين على التداوي بترابها والاستشفاء بآثارها ». فهذا القول لا يحسن بمثلهِ لان الكنيسة الاورثذكسيَّة كالكنيسة الكاثوليكية لا تنكر المعجزات وشفاعة اولياء الله. واغرب من ذلك قولهُ عن الكنائس التي زارها في فرنسة (ص ١٦) : « وقد ادهشني ما رأيتهُ في الكنائس التي زرتها في فرنسا كثرة المنحوتات والتماثيل حتى خُيّل لي ان مساجد المسيحيين اصبحت اكثر قرباً لهياكل ديانا وآمون... » واستشهد بآية التوراة حيث انهى الله عن السجود للمنحوتات. وعاد الى هذا الموضوع مراراً (ص ٢٥ و ٣٣ و ٣٤) وادَّعى ان هذه التماثيل لم تظهر في الكنيسة الَّا في اواخر القرن العاشر. وكلّ ذلك تحامُلٌ لا محلَّ لهُ في كتاب سياحة. ولو اردنا ان نبيّن لجنابهِ بطلان قولهِ لفعلنا وذكرنا لهُ شواهد عديدة تنقض مزاعمهُ وتصرّح عن اكرام التماثيل والصور الناتئة في الشرق والغرب منذ اوائل الكنيسة. ونكتفي لضيق المكان بقليل منها فليطالع جنابهُ تاريخ اوسابيوس القيصري (ك ٧ ف ٢٨) وتاريخ نيقيفوروس (ك ٦ ف١٥) وكلاهما يذكر ان المرأة التي شفاها المسيح من نزيف الدم اقامت لهُ تمثالاً في مدينة قيساريَّة فيلبُّس (بانياس). وكذلك قد وُجد في دياميس رومية عدد كبير من التماثيل المسيحيَّة الراقية الى القرنين الثالث والرابع اخصهما تمثال القديس بطرس وتمثال القديس هيبوليتوس فتعجَّبنا كيف لم يشاهدهما المؤلف في زيارتهِ لمتاحف رومية. بل في

متحف الاستانة العليَّة تماثيل نصرانيَّة قديمة من جملتها تمثال الراعي الصالح

وقد رأينا في كنيسة القديس بولس في لندرة فوق مذبحها الاكبر تمثالَي القديسين بطرس وبولس بينهما تمثال العذراء الطاهرة. وهذا عكس ما ذهب اليهِ المؤلف اذ قال (ص ٥٨) ان كنيسة مار بولس «خلوة من تماثيل القديسين». ثم وجدنا تناقضاً في كلام جناب السائح فانهُ بعد ان زيَّف مرارًا اكرام الكنيسة الكاثوليكية لتماثيل القديسين مدح الانكليز (ص ٧٥) لانهم اقاموا في كنيسة وستمنستر تمثالًا للموسوي بكونسفيلد قال سامحهُ الله «فاجالت أُمَّة تضع تمثالًا في كنائسها وبين آثار ملوكها وتماثيل عظمائها لرجل نبغ فيها من ارومة يهوديَّة وقد مات مشكوكًا في نصرانيَّتهِ» كأنَّ تمثال بكونسفيلد احق ان يكرَّم من تماثيل اولياء الله. فما كان الاحرى بالكاتب ان يجل الكاثوليك لإقامتهم هذه الصور التي يكرّمون بها لا مشاهير الرجال بل جلَّة القديسين المعظَّمين ولا فرق بين صورهم ان تكون ناتئة وغير ناتئة لانَّ ذلك عرضٌ محض. امَّا آية التوراة عن الصور فلا تنفي الَّا السجود المخصوص بالله وحدهُ

هذا ولولا خوف الإطالة لاردفنا على هذه اللاحظات غيرها لنبيّن للمؤلف اننا تصفَّحنا كتابهُ بتأنٍ ولم نحمل القول على الحدس والتخمين

شَذَرَاتٌ

البعثة النمسويَّة الى بلاد العرب عاد الى بيروت الدكتور موزيل ورفيقهُ الدكتور ميليك الحورّ البارح من رحلتهما الى بلاد العرب. وكانت الحكومة النمسويَّة برخصة حكومتنا السنيَّة ارسلتهما الى تلك الجهات لمشروع علمي قاما بهِ احسن قيام. وهذا ملخَّص اعمالها كما فهمناهُ منهما وقد اجتمعنا بهما عند عودتهما وقبل ابحارهما في ١٣ الجاري. كان سفرهما بعد عيد الفصح من هذه السنة فتوغَّلا في البرّيَّة حتى وصلا الى قبيلة الصخور واجتمعا بزعيمها فاكرم مثواهما وصحبهما مع نفر قليلين من العرب الى حيث احبَّا فركبوا جميعهم الهجن وساروا الى تخوم نجد والحجاز وفحصوا الآثار القديمة الباقية هناك من حدود مصر الى وادي حسبان وبئر سبع والبحر الاحمر وتتبَّعوا طريق الاسرائيليين عند خروجهم من مصر ودوَّنوا اشياء كثيرة تُعرِّف تلك الجهات واحوال سكَّانها وطبائع قبائلها في معاشهم ولغاتهم واناشيدهم

الى غير ذلك مما يعين على مطالعة الكتاب الكريم وفهم معمياته . وقد زاروا في غربي وادي سرحان عدة قصور قديمة شاهقة الارجاء محكمة البنيان هذه اسماؤها : عمرة وطوبة ومشتى ومشيش وحمام وازرق وعوينــد والحراني والموقر . وموقع قصر عمرة في بادية الصوان وهو خلوٌ من السور ولا مماهد لهُ للسكنى وفيهِ من التصاوير البديعة ما يخلب العقول وهي تنيف على ٣٠٠ صورة كلهـا بالألوان العجيبة ومنها ما يبلغ طولهُ تسعة امتار في عرض ثلاثة مرسومة على الجدران الطلي بالشيد وقد تمكنوا من نقل كثير من هذه الصور التي تمثل عادات قدماء عرب الجاهلية كالصيد والغزوات والمآدب والصنائع والمناسك الدينية . اما بقيَّة القصور فليس فيها صور ملوَّنة وانما صورها ناتئة محفورة . ولا يُعلم أكانت هذه القصور لسكنى الامراء ام للدفاع ام لغير ذلك وانما يوجد بينها تشابه حمل الدكتورين على الظن انها لدولة واحد وانَّ مصوّري هذه الطرائف من الروم تولوا عملها لبعض ملوك العرب . واكثرها في حالة حسنة لم تؤذهِ قوارع الدهر . وقد علما انَّ في شرقي وادي سرحان اربعة قصور أُخرى لم يسمح لهما الوقت بزيارتهما

ثمَّ اتجه الدكتوران الى الغرب فزارا عدة امكنة وردت اسماؤها في سفرَي العدد والخروج كبموت (במות) وفينان (פונן) وعيّ (עיי) وهي غير عي عباريم (עיי העברים) المذكورة في سفر العدد لانهما تحققا انَّ مسير الاسرائيليين كان على طريق أُخرى واسماؤها الواردة في الكتاب معروفة حتى اليوم عند اهل البادية. وزارا ايضاً بتوك بعل (במות בעל) في وادي القويجيَّة وحصن نبو (נבו) في خربة الخيط ويعزر (יעזר) وتخوم ارض مواب وهيكل بعل فغور (בעל פעור)

ومما اثبتا صحَّة وجودهِ قلعة العويرة التي رمَّمها الصليبيون وكان البعض انكروا وجودها . وسافرا بعــد ذلك الى وادي عربة في الجنوب ففحصا جهتهُ الغربيَّة . هذه خلاصة تلك الرحلة التي يبني عليها العلماء آمالًا طيبة . ونحن نهنئ الدكتور موزيل تريل كاتبنا سابقًا على نجاح مساعيهِ ونتمنى ان يتحفنا قريبًا بتفاصيل سفرتهِ هذه

اقدم مكتبة في العالم ‏ اكتشفت البعثة الاميركية المرخَّصة بحفر عاديَّات نيبور على اقدم مكتبة وُجدت في العالم كانت محفوظة في هيكل هــذه المدينة اوَّل عاصمة ملوك بابل فلما اخرب العيلاميون في أيام ابراهيم الخليل تلك الحاضرة دُفنت مكتبتها معها . وهي عبارة عن ٣٠٠٠٠ كتاب في مواضيع مختلفة كُتبت بالحرف

المباني على الآجرّ فلم يُصبها اذى. وقد نُقل منها حتى الآن ١٨٠٠٠ كتاب وبقي ١٢٠٠٠ والعلماء يسعون في تنظيمها وقراءتها ولا بدَّ من ان نحصل منها عمَّا قليل على فوائد جليلة عن تلك الازمنة القاصية العهد ولا نشك في انها تؤيد سفر التوراة في امور كثيرة وتزيل عنهُ مشاكل عديدة

اصل الروم الملكيين — قرأنا في مجلة الثريا مقالة تحت هذا العنوان لصاحبها حضرة الخوري الياس زائل الرومي الملكي ادَّعى فيها ان ابناء ملّته: «بقايا اليونانيين المتَّصل نسبهم بتيستوكل وبريكليس» وهو زعم عجيب لولا انهُ يناقض كل تاريخ صادق يكفي لتنفيده ما قلناه في المشرق (٤: ٦٧٠)

أسئلة وأجوبة

س سأل حضرة الاخ ل. ك من دير الشير: ١ هل يُلفَظ حرف الصاد في العربية كحرف الذال ام لا. ٢ ما هي تآليف القديس يوحنا الدمشقي

لفظ الصاد – تآليف يوحنا الدمشقي

ج انَّ العرب يعدُّون الصاد في عداد الحروف المهموسة والاسليَّة لان النفَس يجري معها ولخروجها من اسلة اللسان اي طرفهِ امَّا لفظها فلم ينصّ عليه احد ولعلَّها لغة جارية على ألسنة بعض القبائل

٢ نجيب على (الثاني) انَّ اعمال القديس يوحنَّا الدمشقي عديدة نعدّدها في مقالة مطوَّلة نثبتها ان شاء الله في المجلَّة مع ترجمة هذا القديس وقد مرَّ شيءٌ من ذلك في المشرق (٢: ٢٨٧)

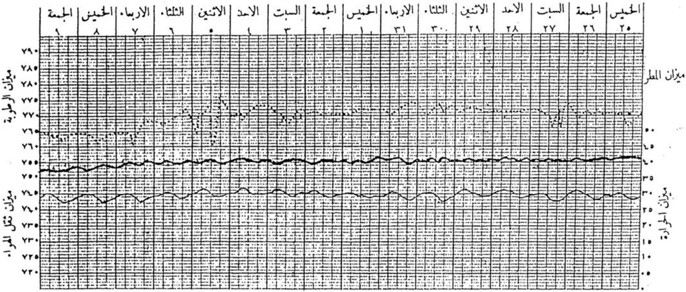
س وسأل حضرة المُرسَل اللاتيني الاب غات من غزَّة هل دُعي رهبان الهيكل (Templiers) باسم «الزاوية» كما ورد في تاريخ الانس الجليل لمجير الدين العليمي (ص٢٧٥). وهل عُرفوا ايضاً باسم دويداريَّة

الداوية والدويداريَّة

ج اشتهر رهبان الهيكل في تواريخ العرب باسم «الداويَّة» بالدال. وورودهُ بالراء تصحيف. ويروى ايضاً «الدواويَّة». امَّا «الدويداريَّة» فاسمٌ لم نجد لهُ اثرًا في التاريخ

ل. ش

قائمة للآثار الجوّية   من ٢٥ تموز الى ٩ آب   ١٩٠١



انّ الخطّ الضخم (——) يدلُّ على ميزان ثقل الهواء المعروف بالبارومتر — والخطّ الرفيع المتابع (——) على ميزان الحرارة (ترمومتر) امّا الخطّ المنقَّط (·····) فهو دليل على ميزان الرطوبة (هغرومتر) — والاعداد الدالّة على درجات ثقل الهواء تدلّ ايضاً اذا حُذف منها عدد المئات على درجات الرطوبة وقد عُيّن التبخر وميزان المطر في ٢٤ ساعة بالمليمترات وعشر المليمترات.